إميل ناصيف

أروع ما قيل في الموت

دار الجيل
بيروت

أُرْوَعُ ما قِيل

في

المَوْتِ

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

المقدمة

خرجنا في هذه السلسة من «أروع ما قيل» عن فنون الأدب وأغراضه مرّتين. أولاهما حين خصّصنا كتابًا لأروع ما قيل في الزواج، وثانيتهما في هذا الكتاب الذي خصّصناه لأروع ما قيل في الموت.

ورب سائلٍ يسأل: لماذا خصّصنا هذين الموضوعين دون غيرهما بكتابين مستقلّين؟ والجواب أنّهما أهم حدثين يتعرّض لهما الإنسان في حياته، وكلاهما بداية ونهاية، ولكل منهما علائق وشيجة بالدين، والمجتمع، والتجربة الإنسانية على مدى العصور وفي مختلف المجتمعات.

والناظر في الكتابين يرى أنّنا نوَّعنا فصولهما ما أمكننا ذلك، فمن الدين نُتف، ومن الأمثال أخرى، ومن الحكمة طاقة ثالثة، إلى ما استطعنا الوصول إليه من طرائف، ونوادر، وكلّ ما فيه حكمة، أو موعظة، أو نادرة، أو خبر طريف، أو ما يدعو إلى إعمال العقل فيه، أو نحو ذلك.

وليس لنا الفضل في كل ذلك سوى فضل الاختيار، والتنسيق، وقد اقتضى الأوّل أن أقرأ الكثير من الكتب لكي أعود من قراءتي لها ببعض ما وجدته رائعًا. وقد أكون غير موفّق في بعض ما اخترت، أو قد يكون عند بعضهم ليس «أروع ما قيل»، لكنني اجتهدت أن يكون «من أروع ما قيل» إن لم يكن «أروعه»، فإن أصبتُ فالخير أردت، وإلّا فحسبي أنني حاولت. والله الموفّق والمعين.

المؤلف

الباب الأول

من الدّين

الفصل الأوّل: من الديانة الإسلامية

أوّلًا: من القرآن الكريم

﴿كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ المَوْت﴾.

(الأنبياء: ٣٥)

* * *

﴿فإذا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

(النحل: ٦١)

* * *

﴿أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ﴾.

(النساء: ٧٨)

* * *

﴿وَمَا تَدْري نَفسٌ بأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ﴾.

(لقمان: ٣٤)

* * *

﴿قُلْ إنَّ المَوْتَ الذي تفِرُّونَ مِنْهُ فإنَّهُ مُلاَقِيكُمْ﴾.

(الجمعة: ٨)

* * *

﴿وما الحياةُ الدنيا، إلاّ لعب ولهو، وللدار الآخرة خير للذين يتّقون، أفلا تَعْقِلون﴾.

(الأنعام: ٣٢)

* * *

﴿الذين يستحبّون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدّون عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا، أولئك في ضلال بعيد﴾.

(إبراهيم: ٣)

* * *

﴿يا قوم، إنّما هذه الحياة الدنيا متاع، وإنّ الآخرة هي دارُ القَرَار﴾.

(غافر: ٣٩)

* * *

ثانيًا: من أقوال النبيّ محمد (ﷺ)

«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ، ولا يَدْعُ به مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وإِنَّهُ لا يَزِيدُ المُؤْمِنَ عُمُرُهُ إلّا خيرًا».

النبيّ محمّد (ﷺ)

* * *

«إذا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وإذا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، ومِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ».

النبيّ محمدّ (ﷺ)

* * *

«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ أَصَابَهُ، فإنْ كانَ لا بُدَّ فاعِلًا فَلْيَقُلْ: اللّٰهُمَّ أَحْيِنِي ما كانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لي، وَتَوَفَّنِي إذا كانَت الوَفَاةُ خَيْرًا لي».

النبيّ محمدّ (ﷺ)

* * *

«لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدادُ، وإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ».

النبيّ محمدّ (ﷺ)

* * *

«يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ».

النبيّ محمدّ (ﷺ)

* * *

«كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ على عَمَلِهِ إلّا الذي مَاتَ مُرَابِطًا في سَبِيلِ اللهِ فإِنَّهُ يُنْمَى عَمَلُهُ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ويأمَنُ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ».

النبيّ محمدّ (ﷺ)

* * *

«كُنْ في الدُّنيا كأنّكَ غَرِيبٌ أو عابِرُ سَبِيلٍ».

النبيّ محمدّ (ﷺ)

* * *

«مَا رَأَيْتُ منظرًا فَظِيعًا إلّا والمَوْتُ أَفْظَعُ مِنْهُ».

النبيّ محمدّ (ﷺ)

* * *

الفصل الثاني: من الديانة المسيحيّة

الحقَّ الحقَّ أقول لكم: إنْ لم تقع الحبّة من الحنطة في الأرض وتمتْ تبقَ وحدها، وإذا ماتتْ أخرجتْ حبًّا كثيرًا.

(يوحنا ١٢: ٢٤)

* * *

طوبى للأموات الذين يموتون في رضا الربّ! يقول الروح: فليستريحوا منذ اليوم من المتاعب، لأنّ أعمالهم تصحبهم.

(رؤيا يوحنا ١٤: ١٣)

* * *

دع الموتى يدفنون موتاهم.

(متى ٨: ٢٢)

* * *

إنّ أجرة الخطيئة هي الموت.

(رسالة بولس إلى رومة ٦: ٢٣)

* * *

لا تشمتْ بموت أحد، إنّا بأجمعنا نموت.

(ابن سيراخ ٨: ٨)

* * *

الفصل الثالث: من الديانات الهنديّة

لا عاصم للإنسان من الموت حتى ولو اتخذ السماء أو البحر أو كهوف الجبال أو أيّة بقعة من الدنيا ملجأ له.

(من أقوال الدامايادا)

* * *

كما يسوق راعي البقر قطيعه إلى اصطبل، فكذلك تسوق الشيخوخة والموت الأحياء.

(من أقوال الدامايادا)

* * *

يحيق الموت بالواحد ويجرفه كما يجرف الطوفان النائم.

(من أقوال الدامايادا)

* * *

إذا حانت منيّة الإنسان فلن يغني عنه أولاده ولا أبوه ولا الأقربون.

(من أقوال الدامايادا)

* * *

كما يبكي الأطفال عبثًا للحصول على القمر، كذلك يبكي الأحياء

على الأموات.

(من كتاب الجتاكس)

* * *

على الناس أن يستقبلوا الموت بسرور استقبالهم عيد منتصف الشهر.

(من كتاب الجتاكس)

* * *

عندما يُشرف العصفور على الموت تصبح زقزقته حزينة، وعندما يشرف الإنسان على الموت ترتدي أقواله طابع الفضيلة.

(من الديانة الكونفوشيوسية)

* * *

إني لأعلم علم اليقين أنّ الموت لن يخطئني.

(من أقوال الجتاكس)

* * *

إذا جاء الموت بعد الظهر فإنّ البرء قد يأتي في المساء، وإذا جاء الموت في المساء فقد يأتي البرء في الصباح.

(من الزرادشتية)

* * *

كيف نفهم الموتى ونحن لا نعلم عن الحياة إلّا يسيرًا.

(من الكونفوشيوسيّة)

* * *

الباب الثاني

من الأمثال

الفصل الأوّل: من الأمثال العربيّة

- الموت في الجماعة طيّب.

* * *

- ليس حيّ على الزمان بباق.

* * *

- موت الحرّة خير من العرّة.

* * *

- الموت حوض مورود.

* * *

- الموت ريحانة المؤمن.

(النبي محمد (ﷺ)، وأصبح هذا القول مثلاً عربيًا)

* * *

- الموت السجيح[1] خير من الحياة الذميمة.

* * *

(١) السجيح: السهل، الهينّ واللّيّن.

- الموت الفادح خير من العِيّ (أو: العيش) الفاضح.

* * *

- موت في قوت وعزّ أصلح من حياة في ذلّ وعجز.

* * *

- احرصْ على الموت توهبْ لك الحياة.

* * *

- ذكر الموت جلاء القلوب.

* * *

- كفى بالموت نأيًا واغترابا.

* * *

الفصل الثاني: من الأمثال العالميّة

الموت يهزأ بالطبيب.

مثل إنكليزيّ

* * *

تستمدّ الحياة قيمتها من الموت.

مثل هندي

* * *

الموتُ هو المسوّي الكبير بين الناس.

مثل إنكليزي

* * *

الموت والقبر لا يميّزان بين الأشخاص.

مثل إنكليزي

* * *

- الموت أكبر من أي جبل، وأصغر من أي شعرة في آن معًا.

مثل يابانيّ

* * *

- البحث عن بلاد ليس فيها أضرحة، يؤدي إلى بلاد أكلة لحوم البشر.

مثل ماغاشيّ

* * *

- الموت جمل يركع أمام كل الأبواب.

مثل تركيّ

* * *

- الموت هو صديق المشرف على الموت.

مثل دانمركي

* * *

- الموت هو أمام عينيّ الشيخ، أما الشاب فالموت خلفه.

مثل أستونيّ

* * *

- الموت لا ينظر مطلقًا إلى الإنسان

مثل ليتواني

* * *

- الميّت يقول إنّه ذاهب لِعَدّ النجوم، وإنّه سيعود بعد أن يعدّها جميعًا.

مثل تاهيتيّ

* * *

الفصل الثالث: من الأمثال اللبنانية

- أكتر من الموت شو في؟
- ألف عيشِة بالكدَرْ، ولا نومة تحت الحجر.
- ألف كلمة جبانْ، ولا كلمة الله يرحمو.
- الله عطى، والله أخذ.
- الّي بِتاجر بالرواح، لا يكون نوّاح.
- الّي بتجي ورقتو، بروح غصب عن رقبتو.
- الّي بموت، والّي بفوت، شيلُنْ من راسك.
- أمرّ (أو: شرّ) من الموت انتظارُو.
- بين الستّين والسبعين هلاك بني آدمين.
- تعدّدت الأسباب والموت واحد.
- الجنازة حامية، والميّت كلب.
- حبّ الموت (أو: الشرّ) غيرك بيكرهو.
- خِلْصُوا زيتاتو.
- ربّ الموت خاف من الموت.
- ربّنا ما ساوانا إلّا بالموت.

- شو بينْفع البكي بعد ما حمْلوه للمقبرة؟
- شو الموت نَعَس؟
- قيمة الميّت دفْنو.
- كاس دايِر عَ الجميع.
- ما حدا بموت إلّا تَ تجي ساعتو.
- ما في علّة تَ إلها دوا، إلّا علّة الموت ما إلها دوا.
- ما كلّ من عاش يُحمد، ولا كلّ من مات يُفقد.
- ما مِتّ ما شفِت مين مات؟
- مات محمد وما تعطّلت إمّتو.
- الموت أقرب من الحاجب للعين.
- الموت بساوي بين الجميع.
- الموت عَ الكترة حِلُو.
- الموت فجي، والسعادة منين تجي؟
- موت الفقير، وتعريصة الكبير ما حدا بيعرف فِيُنْ.
- الموت ما بيرحم حدا.
- الموت ما في شماتة.

* * *

الباب الثالث

من الحكمة

الفصل الأول: من أقوال الحكماء العرب

- الموت باب الآخرة.

الحسين بن علي

* * *

- لا ينجو من الموت من خافه، ولا يُعطى البقاء من أحبّه.

الإمام علي

* * *

- موت الصالح راحة لنفسه، وموت الطالح راحة للناس.

الإمام علي

* * *

- استهينوا بالموت، فإنّ مرارته في خوفه.

الإمام علي

* * *

- عشْ ما شئت فأنتَ ميّت، وأحببْ من شئت فأنتَ مفارقه، واعمل ما شئت فأنتَ مجزيّ به.

الإمام الغزالي

* * *

- احرصْ على الموت توهبْ لك الحياة.

أبو بكر الصديق

* * *

- الموت أهون ما بعده وأشدّ ما قبله.

أبو بكر الصديق

* * *

نسيان الموت صدأ القلب.

الإمام علي

* * *

- إنّ الموت فضح الدنيا.

الحسن بن علي

* * *

- نعم نصيحة القلب ذكر الموت، يطرد فضول الأمل، ويكفّ غرب المنى، ويهون المصائب، ويحول بين القلب والطغيان.

معبد الجهني

* * *

- ما دَخَلَ ذِكْرُ الموت بيتًا إلّا رضي أهله بما قسم الله لهم، وجدّوا في أمر آخرتهم.

* * *

- أبلغ العظات النظر إلى محلّ الأموات، ومصارع البنين والبنات.

* * *

– قال الحسن بن علي وقد قعد عند رأس ميت:

إنّ امرأً هذا آخره لأهل أن يزهد فيما قبله، وإنّ امرأً هذا أوّله لأهل أن يحذر ما بعده.

* * *

– يا ابن آدم، إنّ جوارحك سلاح الله عليك بأيّها شاء قتلك.

* * *

– من كان حياته بنفسه يكن مماته بذهاب روحه، فتصعب عليه، ومن كان حياته بربّه، فإنّه ينتقل من حياة الطبع إلى حياة الأصل، وهي الحياة على الحقيقة.

* * *

– أرى داعي الموت لا يقلع، وأرى من مضى لا يرجع، ومن بقي فإليه ينزع.

عبدالله بن شداد

* * *

– يا ابن آدم، إنّما أنت عدد، فإذا مضى يومك فقد مضى بعضُك.

الحسن بن علي

* * *

– من أكثرَ من ذكر الموت اكتفى باليسير، ومن علم أنّ الكلام عمل قلَّ كلامه إلّا فيما ينفع.

عمر بن عبد العزيز

* * *

- قال رجل للحسن بن علي: مات فلان فجأة، فقال: لو لم يمت فجأةً لمرض فجأةً ثمّ مات.

العقد الفريد

* * *

- كان أبو الدرداء إذا رأى جنازة قال: اغدي فإنّا رائحون، أو روحي فإنّا غادون.

العقد الفريد

* * *

الفصل الثاني: من أقوال الحكماء الأجانب

- اثنان لا يغيّران رأيهما أبدًا: الجاهل والموت.

لوك

* * *

- إنّ الرجل الذي ليس في روحه استعداد للموت بشرف في سبيل أمر جليل لا يحقّ له أن يعيش في الحياة.

مارتن

* * *

- الموت خير من المذلّة.

سفوكليس

* * *

- الخوف من الموت شرّ من الموت.

بيليوس

* * *

- عندما تمزح العجوز تغازل الموت.

بوليو سيروس

* * *

- يجب أن يبكي الإنسان عند ولادته، وليس عند وفاته.

مونتسكيو

* * *

- ينبغي للحكيمْ أن يغادر هذه الدنيا بالقدر نفسه من الحشمة الذي يغادر به الوليمة.

ديموفيلوس (القرن السادس ق.م.)

* * *

- الموت المتوقّع هو أبشع أنواع الميتات.

باكليدس الخيوسي (القرن الخامس ق.م.)

* * *

- كل شيء من التراب وإلى التراب يعود.

ميناندر (القرن الرابع ق.م.)

* * *

- المصيبة أن تبقى سنابل القمح بلا حصاد، وكذلك المصيبة ألّا يموت البشر.

إبكتيتوس (مطلع القرن الثاني)

* * *

- الموت خير كبير ما دام ليس شرًا.

بوبليليوس سيروس (القرن الأول ق.م.)

* * *

- إنّه لمن السعادة أن يموت المرء قبل أن يتوسّل العون من الموت.

بوبليليوس سيروس

* * *

- المرء يموت مرتين عندما يموت بإرادة آخر.

بوبليليوس سيروس

* * *

- الموت يُمسك بمن يفرّ.

هوراس (حوالى السنة ٢٣ ق.م.)

* * *

- الموت يساوي بين كل الحالات.

كلوديانوس (حوالى السنة ٣٩٠)

* * *

- الموت القصير هو الخير الأعظم في الحياة البشرية.

بلينوس الأكبر (حوالى السنة ٧٧)

* * *

- هناك دواء لكل شيء، ما عدا الموت.

بونافنتور دي بيرييه (١٥٥٨)

* * *

- ثلاثة تدخل البيوت دونما استئذان، الديون، والشيخوخة، والموت.

- الحياة العقيمة موت مسبق.

غوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢)

* * *

- لا الشمس ولا الموت يمكنهما التحديق.

سرفانتيس (١٦١٣)

* * *

- ينبغي عدم تحريك رماد الموتى.

انطونيو بيريز (١٥٩٨)

* * *

- ليس ثمة أي قلعة تحمي من الموت.

ب.ج. مارتين (١٨٥٩)

* * *

- الموت حاصد لا يعرف القيلولة.

سرفانتيس (١٦١٥)

* * *

- هناك أموات يرتاحون، وآخرون لا يعرفون الراحة.

بيريز غالدوس (١٩٠٩)

* * *

- للحيّ أصدقاء قليلون، وليس للميت أحد.

موليير (١٦٥٣)

* * *

- المرء لا يموت إلا مرة واحدة، وذلك لمدة طويلة.

موليير (١٦٥٣)

* * *

- الموت لا يفاجىء الحكيم أبدًا، فهو مستعد دومًا للرحيل.

لافونتين (١٦٧٨)

* * *

- البشرية تتألف من أموات أكثر منها من أحياء.

أوغست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧)

* * *

- الموت ليس غدرًا.

جول فاليس

* * *

- هناك أموات ينبغي قتلهم.

ف. دينوابيه (١٨١٨ - ١٨٦٩)

- حب العمل، الأسرة، الدين، الفن، الوطنية هي كلمات لا معنى لها بالنسبة إلى من يموت جوعًا.

أو. هنري (١٨٦٢ - ١٩١٠)

* * *

- ليس الموت الحقيقة النهائية. إنه يبدو لنا أسود، كما تبدو لنا السماء زرقاء، ولكنه لا يسوّد الوجود، مثلما لا يلطخ اللازورد السماوي جناحي الطير.

رابندرانات طاغور (١٨٦١ - ١٩٤١)

* * *

- إن الموت، هو في النهاية، المنتصر الوحيد.

ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣)

(قول موجّه منه إلى الجنرال ديغول)

* * *

- ليس الموت سوى فزّاعة.

سقراط (القرن الخامس ق.م.)

* * *

- ليس الموت هو الرهيب، بل الموت المخزي.

إبكتيتس (مطلع القرن الثاني)

* * *

- البشر يخشون الموت مثلما يخشى الأولاد الظلمات.

فرنسيس بايكون (١٦٠٥)

* * *

- كلما كان الرجل فاضلاً، قلّ خوفه من الموت.

صمويل دجونسون (١٦ أيلول ١٧٧٧)

* * *

- التألم ولا الموت: هوذا شعار البشر.

لافونتين (١٦٦٨)

* * *

- الخوف من الموت يعني تكريم الحياة كثيرًا.

توما جوفروى (١٨٣٦)

* * *

- من يتقبّل الموت بسهولة ليس امرأً بائسًا.

سينيكا (حوالى السنة ٥٥)

* * *

- من يحتقر حياته يكن سيد حياة الآخرين.

سينيكا (حوالى السنة ٦٤)

* * *

- هناك أسباب مختلفة لاحتقار الحياة، ولكن ليس ثمة مبرر لاحتقار الموت.

لاروشفوكو (١٦١٣ - ١٦٨٠)

* * *

- الموتى يذهبون بسرعة.

برغر (١٧٤٧ - ١٧٩٤)

* * *

- الميت منذ ستة أشهر ميت مثل آدم.

هـ.ح. بون (١٨٥٥)

* * *

الفصل الثالث: من أقوال الشعراء العرب

ليس من مات فاستراح بميت   إنّما الميتُ ميّتُ الأحياءِ
إنّما الميتُ من يعيش كئيبًا   كاسفًا باله قليل الرجاء

* * *

كلّ ابن أنثى وإن طالتْ سلامته   يومًا على آلةٍ حدباءَ محمولُ

كعب بن زهير

* * *

وما المرءُ إلاّ كالهلالِ وضوئِهِ   يوافي تمام الشهر ثمّ يغيبُ

* * *

وإذا المنيّة أنشبتْ أظفارها   ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

أبو ذؤيب الهذلي

* * *

لعمرُك إنَّ الموتَ ما أخطأَ الفتى   لكالطِّولِ المُرخَى وثِنْياهُ باليدِ

طرفة بن العبد

* * *

ومن لم يَمتْ بالسيفِ مات بغيرِه   تنوَّعتِ الأسبابُ والموت واحِدُ

* * *

مشيناها خُطًى كُتبتْ علينا   ومن كُتبت عليه خُطًى مشاها
ومن كانتْ منيّته بأرضٍ   فليس يموتُ في أرضٍ سواها

* * *

إذا لم يكنْ من الموت بدٌّ   فمن العار أن تموت جبانا

المتنبي

* * *

كمْ مات قومٌ وما ماتتْ مكارِمُهم   وعاش قوم وهم في الناس أحياءُ

* * *

وما المال والأهلون إلاّ ودائع   ولا بدّ يومًا أن تُردَّ الودائع

لبيد بن ربيعة

* * *

وقد فارق الناسُ الأحبَّةَ قبلنا   وأعيا دواءُ الموت كلَّ طبيب

المتنبي

* * *

الموت داءٌ لا دواءَ له   إلاّ التّقى والعملُ الصالحُ

* * *

للموتِ فينا سهامٌ وهي صائبةٌ   وكلّ نعيمٍ لا محالةَ زائِلُ

لبيد بن ربيعة

* * *

ليت شعري فإنني لستُ أدري أيّ يوم يكون آخر عمري
وبأيّ البلاد تُقبضُ روحي وبأيّ البقاع يُحفر قبري

أبو العتاهية

* * *

للموت فينا سهام وهي صائبة من فاته اليوم سهم لم يفته غدا

* * *

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي هو قبل الموت بانيها

الإمام علي بن أبي طالب (حوالى ٦٠٠ - ٦٦١)

* * *

موت التقي حياة لا نفاد لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء

* * *

فلو كان هول الموت لا شيء بعده لهان علينا الأمر واحتُقر الأمر
ولكنه حشر ونشر وجنّة ونار وما قد يستطيل به الخبر

* * *

من كان يرجو أن يعيش فإنني أصبحت أرجو أن أموت فأُعتقا
في الموت ألف فضيلة لو أنها عُرفت لكان سبيله أن يعشقا

* * *

والمرء يفرح بالأيام يقطعها وكل يوم مضى يُدني من الأجل

* * *

وأيدي الندى في الصالحين قروض   كفى بالموت نأيًا واغترابا

* * *

لا تحسبن الموت موت البلى   فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت، ولكنّ ذا   أفظع من ذاك لذلّ السؤال

* * *

جزى الله عنا الموت خيرًا فإنه   أبرُّ بنا من كل بَرّ وأرأف

يعجّل تخليص النفوس من الأذى   ويُدني من الدار التي هي أشرف

* * *

وإذا كان منتهى العمر موت   فسواءٌ طويله والقصير

* * *

الموت باب وكل الناس تدخله   يا ليت شعري بعد الباب ما الدارُ

* * *

في فرقة الأحباب شغل شاغل   والموت صدقًا فرقة الإِخوان

* * *

كُتب الموتُ على الخلق فكَمْ   فلّ من جيشٍ وأفنى من دولْ

ابن الوردي

* * *

لما أتى معاوية بن أبي سفيان موتُ زياد بن أبيه توجّع، ثمّ قال:

وأُفردتُ سهمًا في الكنانة واحدًا سيُرمى به أو يكسر السهمَ كاسِرُه

* * *

ومن كان ذا بابٍ شديدٍ وحاجبٍ فعمّا قليل يهجر البابَ حاجبُه

* * *

ألا إنّما جسمي لروحي مطيَّةٌ ولا بدّ يومًا أن يُعرّى من الرحلِ

ابن المعتزّ

* * *

ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرىء مثله فيما مضى
هلك المداوي والمداوَى والذي جلب الدواءَ وباعه ومن اشترى

* * *

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئةٍ وذهوبِ
تملّكها الآتي تملُّكَ سالبٍ وفارقها الماضي فراقَ سليبِ

المتنبي

* * *

وما المرءُ إلّا كالشهاب وضوئِهِ يصيرُ رمادًا بعد إذ هو ساطعُ

لبيد بن ربيعة

* * *

وأحكم بيتٍ قالته العربُ في وَصْف الموت بيتُ أُميَّة بن أبي الصَّلت، حيث يقول:

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ مِنْ مِنيَّتهِ   في بَعض غِرّاته يُوَافِقُهَا
مَنْ لم يمُتْ عَبْطَةً يَمُت هَرَمًا   للموت كأسٌ والمرءُ ذائقها

* * *

وقال أصْبَغ بن الفَرَج: كان بنَجْرَان عابدٌ يَصِيح في كلِّ يوم صَيحتين بهذه الأبيات:

قَطَعَ البقاء مَطالعُ الشمس   وغُدوُّها من حيث لا تُمْسِي
وطلوعُها حمراءَ قانيةً   وغُروبُها صفراءَ كالوَرْس
اليومُ يُخبر ما يجيء به   ومَضى بفَضْلِ قَضَائه أمسِ

* * *

قال آخر:

زَيَّنت بيتك جاهلاً وعَمَرْتَه   ولعلّ غيرَك صاحبُ البيتِ
مَنْ كانت الأيامُ سائرةً به   فكأنه قد حلّ بالموت
والمرءُ مُرْتَهن بسَوْفَ ولَيْتنِي   وهلاكُه في السَّوف واللَّيْت
لله دَرُّ فتًى تَدَبَّرَ أمرَه   فَغَدَا وراح مُبَادِرَ الموت

* * *

وقال صريع الغواني:

كم رأينا من أُناس هَلَكوا   قد بَكَوْا أحْبَابَهُم ثم بُكُوا
تركُوا الدُّنيا لمن بعدَهُمُ   وُدُّهم لو قَدّمُوا ما تركوا
كم رأينا من مُلوكٍ سُوقَة   ورأينا سُوقةً قد مَلَكوا

* * *

وقال الصَّلَتان العَبْدِيّ:

أَشابَ الصَّغِيرَ وأَفْنى الكبيـ ـرَ كَرُّ الغَداة ومَرُّ العَشِي

إذا ليلةٌ أَهْرمَت يومَها أتى بعدَ ذلك يومٌ فَتِي

نَرُوح ونَغدو لحاجاتِنا وحاجةُ مَن عاش لا تَنقَضِي

تَموت مع المرء حاجاتُه وتَبْقَى له حاجةٌ ما بَقِي

* * *

وكان سُفيان بن عُيينة يَستحسن قولَ عَدِيّ بن زَيْد:

أينَ أهلُ الدِّيارِ مِنْ قَوْم نُوحٍ ثم عادٌ من بعدها وثَمودُ

بينما هُمْ على الأسِرَّة والأنْـ ـماطِ أفضت إلى التُّراب الخُدودُ

وصحيحٌ أَمْسى يعُودُ مريضًا وهو أَدنى للموت ممَّن يَعودُ

ثم لمْ ينقضِ الحديثُ ولكنْ بعد ذا كلِّه وذاك الوَعِيدُ

* * *

وقال أبو العتاهية في وَصْف الموت:

كأن الأرْض قد طُويت عَليًا وقَد أُخْرِجْتُ ممّا في يَدَيّا

كأن قد صِرْتُ مُنْفَرِدًا وحيدًا ومُرْتَهنًا هناك بما لَديّا

كأنّ الباكياتِ عليَّ يومًا ولا يُغنِي البُكاءُ عليّ شَيًّا

ذكرتُ مَنِيَّتِي فنعيتُ نفسي ألا أَسْعِدْ أُخَيَّك يا أُخَيّا

* * *

وقال:

سَتَخْلقُ جِدَّةٌ وتَجُود حالٌ وعِند الحقّ تُخْتَبَر الرِّجالُ

ولـلـدُّنـيـا ودائـعُ فـي قُـلـوبٍ بها جَرَت القَطِيعةُ والوِصَالُ
تَـخَـوَّفُ مـا لَـعـلَّـكَ لا تَـراه وتـرْجُـو مـا لـعـلـك لا تَـنـالُ
وقد طَلع الهِلاَلُ لهَدْمِ عُمْري وَأَفْـرَحُ كُـلَّـمـا طَـلـع الـهِـلالُ

* * *

وله أيضًا:

مَنْ يَعِشْ يَكْبُرْ ومَنْ يَكْبُر يَمُتْ والـمَـنَايا لا تُبالـي من أَتَـتْ
نــحــن فــي دار بَــلاء وأَذًى وشَــقَــاء وعَــنــاءٍ وعَــنَــتْ
مَـنـزِلٌ مـا يَـثْـبُـتُ الـمـرءُ بـه سـالـمًـا إلا قـلـيـلاً إن ثَـبَـتْ
أيها الـمَـغْرور ما هذا الصِّبا لو نَهَيْتَ النفسَ عنه لانْتهتْ
رَحِـمَ الله أمـرأً أنْـصَـفَ مِـنْ نَفْسِه إذْ قال خَيْرًا أو سَكتْ

* * *

وقال ابن عبد ربه:

أتـلْـهـو بـيـن بـاطِـيَـةٍ وزيـرِ وأَنت من الهلاك على شَفِيرِ
فـيـا مَـن غَـرّهُ أَمَـلٌ طَـوِيـلٌ يُـؤَدِّيـه إلـى أَجـل قـصِـيـر
أَتَـفْـرَحُ والـمَـنِـيَّـة كـلَّ يـومِ تُريك مكانَ قَبْرك في القُبورِ
هي الدُّنيا فإنْ سَرَّتْكَ يومًا فـإنَّ الـحُـزْنَ عـاقـبـةُ الـسُّـرُور
سَتُسْلَبُ كلَّ ما جَمَّعْت منها كَـعَـارِيـةٍ تُـرَدُّ إلـى الـمُـعِـيـر
وتَغْتَاضُ اليَقِين من التَّظَنِّي وَدَارَ الـحـقِّ مـن دار الـغُـرور

* * *

ولأبي العتاهية:

وَليس مِن مَنزلٍ يَأوِيه ذو نَفَس   إلا وَلِلْمَوْتِ سَيْفٌ فيه مَسْلُولُ

* * *

وله أيضًا:

مـا أَقْـرَبَ الـموتَ منَّـا   تَـجَـاوَزَ الله عـنَّـا

كـأَنَّـه قـد سَـقَـانـا   بِـكـأْسِـهِ حـيـثُ كُـنَّـا

* * *

وله أيضًا:

أُؤَمِّـلُ أَنْ أُخَـلَّـدَ والـمَـنـايَـا   يَثِبْنَ عَلَيَّ من كلِّ النَّوَاحِي

ومـا أَدْرِي إذا أَمْسَيْتُ حَيًّا   لعَلِّي لا أَعِيشُ إلى الصَّبَاح

* * *

وقال الغَزّال:

أَصْبَحْتُ والله مَجْهودًا على أَمَلٍ   مِنَ الحيَاة قَصِيرٍ غيرِ مُمْتَدِّ

ومـا أُفـارِقُ يـومًـا مَنْ أُفَـارِقُـه   إلا حَسِبْتُ فِرَاقي آخرَ العَهْدِ

أُنظُر إليّ إذا أُدرِجْتُ في كَفَنِي   وانْظُر إليّ إذَا أُدْرِجْت في اللَّحْدِ

وأُقْعُدْ قليلًا وعاينْ مَنْ يُقِيم معي   ممن يُشَيِّعُ نَعْشي من ذَوِي وُدِّي

هَيهات كلُّهُمُ في شَأنِهِ لَعِبٌ   يَرْمي الترابَ ويَحْثُوهُ على خَدِّي

* * *

وقال أبو العتاهية:

نَعى لك ظلَّ الشَّبَاب المَشِيبُ   ونادتْك بأسمِ سِوَاكَ الخُطُوبُ

فكُن مُسْتَعِدًّا لرَيْب المَنُون   فإنَّ الذي هو آتٍ قريبُ
وقَبْلَك داوَى الطبيبُ المَرِيض   فعاش المَرِيضُ ومات الطَّبِيبُ
يَخاف على نَفْسه من يَتُوب   فكَيْف ترى حالَ من لا يَتُوبُ

* * *

وقال أبو الأسود الدُّؤليّ:

أيُّها الآمِلُ ما ليسَ لَه   ربّما غرّ سَفِيهًا أمَلُهْ
رُبَّ من بات يُمَنِّي نفسَه   حالَ مِن دون مُنَاه أَجَلُهْ
والفَتى المُحْتَال فيما نابَه   ربّما ضاقَتْ عليه حِيَلُهْ
قُلْ لمن مَثَّلَ في أشعَاره   يَهْلِكُ المرء وَيَبْقَى مَثَلُهْ
نافِس المُحْسنَ في إحْسانهِ   فَسَيَكْفِيك سَناءَ عَمَلُهْ

* * *

الباب الرابع

عند الاحتضار

لَقِي أبو بكر طلحةَ بن عُبَيد الله، فرآه كاسِفًا مُتَغَيّرًا لونُه، فقال: ما لي أَراكَ مُتَغَيّرًا لونُك؟ قال: لكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ، ولم أسأله عنها؛ قال وما ذاك؟ قال: سمعتُه يقول: إنِّي أعلم كلمةً مَن قالها عند الموت مَحَّصت ذُنوبَه، ولو كانت مثلَ زَبَد البحر، فأُنْسِيت أن أسأله عنها. قال أبو بكر: أُعَلِّمُكَها، وهي: لا إله إلا الله. محمد رسول الله

* * *

أبو الحُبَاب قال: لما أُحتُضر مُعاذ قال لخادمته: وَيْحكِ! هل أَصْبَحْنَا؟ قالت: لا، ثم تركها ساعةً، ثم قال لها: انظُري، فقالت: نعم؛ قال: أعوذ بالله من صباح إلى النار. ثم قال: مَرْحبًا بالموت، مَرْحبًا بزائر جاء على فاقة، أفلح من نَدِم. اللهم إنك تَعلم أنّي لم أُحِبَّ البقاء في الدُّنيا لِجَرْي الأنهار، وغَرْس الأشجار، ولكن لُمكابدة اللَّيل الطويل، وظمأ الهَوَاجر في الحرّ الشديد، ومُزاحمة العُلماء بالرُّكَب في مجالس الذِّكر.

* * *

ولما حضرت الوفاةُ عمَر بن عُتبة قال لرفيقه: نزَلَ بي الموتُ ولم أتأَهّب له. اللهم إنك تَعلم أنه ما سَنح لي أمران لك في أحدهما رِضًا ولي في الآخر هَوًى، إلا آثرتُ رِضَاك على هواي.

* * *

ولما حضرَت الوفاةُ عُمَر بنَ الخطاب: قال لوَلده عَبد الله بنِ عُمَر: ضَع خدِّي على الأرض علّ رَبِّي أن يتعَطَّف عليّ وَيَرْحمني.

* * *

قال ابن السمَّاك: دخلتُ على يزيد الرَّقاشيّ وهو في الموت، فقال لي: سَبَقَني العابدون وقُطع بي، وا لهْفَاه!

* * *

موسى الأَسْوَارِيّ قال: دخلتُ على أَزْدا مَرْد وهو ثَقيل فإذا هو كالخُفَّاش[1] لم يَبْق منه إلا رَأْسه، فقُلت له: يا هذا، ما حالُك؟ قال: وما حالُ من يُريد سفرًا بعيدًا بغير زاد، ويَنطلق إلى ملك عَدْل بغير حُجَّة، ويَدْخُل قبرًا مُوحشًا بغير مُؤنس؟

* * *

قال سقراط لما تجرّع السم:

اخلص اخلص يا كثيف، واصعد يا من لم يقبّل الأدناس.

* * *

وقال كونفوشيوس:

لقد علّمت البشر كيف يعيشون.

* * *

وقال النبي محمد (ﷺ):

بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى.

* * *

(١) يشير إلى ضآلته. وفي بعض الأصول: «كالخفاء».

وقال الخليفة عمر بن الخطاب:

ثكلت عمر أمه إن لم يغفر له ربه.

* * *

وقال الإمام علي وقد سأله القوم أن يعظهم، وكان يجود بنفسه الكريمة: يعظكم سكوتي، وخفوت أطرافي.

* * *

وقال المأمون:

يا من لا يموت ارحمْ من يموت.

* * *

وقال أحد ملوك الفراعنة:

إنني أستقبل الموت سعيدًا مطمئنًا لأنني سأتحرّر من أعباء الحكم والنساء.

* * *

قال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك: كيف تَجِدك يا بُنيّ؟ قال: أَجِدُني في الموت فاْحتَسِبْني، فإنّ ثوابَ الله خيرٌ لك منّي؛ قال: والله يا بُنَي لأن تكون في ميزاني أَحبّ لي من أن أكون في ميزانك؛ قال: وأنا والله لأن يكون ما تُحب أحبَّ إليّ من أن يكون ما أُحِبّ.

* * *

لمّا ٱحتُضِر عمرُ بن عبد العزيز، رحمه الله، ٱستأذن عليه مَسْلَمة بنُ عبد الملك، فأَذِن له، وأمره أن يُخفِّف الوَقْفة، فلما دخل، وقف عند رأسه، فقال: جَزاكَ الله يا أميرَ المؤمنين عنّا خيرًا، فلقد أَلَنت لنا قُلوبًا

كانت علينا قاسية، وجعلت لنا في الصالحين ذِكْرًا.

* * *

حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أنَس بن مالك، قال: كانت فاطمةُ جالسةً عند رسول الله ﷺ: فترا كبت عليه كُرَب الموت، فرفع رأسه وقال: وا كَرْباه! فبكت فاطمة وقالت: واكَرْباه لكَرْبك يا أبتاه! قال: لا كَرْب على أبيك بعد اليوم.

* * *

وقال شارلمان:

مولاي أسلمتك روحي، وأُوصيك بها.

* * *

وقال الحجّاج بن يوسف:

اللهم اغفْر لي.. فانهم يزعمون أنك لا تغفر لي.

* * *

وقال غوتيه:

أريد النور.

* * *

وقال هويس:

سأثب وثبة كبرى في سبيل الأبدية.

* * *

وقال ميرابو لخادمه:

أسند هذا الرأس، فإنه أقوى رأس في فرنسا.

* * *

وقال «كوزمونكهوس»: وهكذا يجب أن نفترقَ يا جسدي بعد أن اتّفقنا سنوات طويلة. وإنه لمن المحزن أن تنتهي صحبتنا.

* * *

وقال سعد زغلول: أنا انتهيت.

* * *

وقال أمير الشعراء أحمد شوقي: إني امرؤ انتهىٰ فسلام على أولادي وأصدقائي.

* * *

قالت عائشة وأبوها أبو بكر الصّديق يحتضر:

وأبْيَض يُسْتَسْقى الغمامُ بوجهه ... رَبيع اليَتامى عِصْمَة للأَرَامِلِ[1]

قالت عائشة: فنظر إليّ كالغضبان وقال: ذلك رسولُ الله ﷺ. ثم أُغْمي عليه، فقالت:

لَعمرُك ما يُغنِي الثّرَاءُ عن الفَتى ... إذا حَشْرَجَت يومًا وضاق بها الصَّدْرُ[2]

قالت: فنظر إليّ كالغضبان وقال لي: قُولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بالحَقّ ذٰلِك ما كُنْتَ منه تَحِيد﴾[3]. ثم قال: انظروا مُلَاءَتيّ فاغْسلوهما وكفِّنوني فيهما، فإنّ الحيَّ أحوجُ إلى الجديد من الميّت.

* * *

وقال مُعَاوية حين حَضرَته الوفاة:

أَلاَ لَيْتَني لم أَغنَ في المُلْكِ ساعةً ... ولم أَكُ في اللّذّات أعْشَى النواظِرِ

(١) البيت من قصيدة لأبي طالب.

(٢) البيت من قصيدة لحاتم بن عبدالله.

(٣) ق: ١٩ .

وكنتُ كذِي طِمْرَيْنِ عاش بِبُلْغَةٍ لياليَ حتى زار ضَنْك المَقابِر

* * *

لما ثَقُل مُعاوية ويزيدُ غائبٌ، أقبل يزيد، فوجد عُثمان بنَ محمد بن سُفيان جالسًا، فأَخذ بيده، وَدَخل على مُعاوية، وهو يَجود بِنَفْسه، فَكلَّمه يزيدُ، فلم يُكلِّمه، فبَكى يزيدُ وتَضَوَّر[1] مُعاوية ساعةً، ثم قال: أي بُني، إنّ أعظمَ ما أخافُ اللهَ فيه ما كنتُ أصنع لك. يا بُني، إنّي خَرجتُ مع رسول الله ﷺ، فكان إذا مضى لحاجته وتوضّأ، أصُبّ الماء على يَدَيه، فنَظَر إلى قميص لي قد ٱنخرق من عاتقي، فقال لي: يا مُعاوية: ألا أَكْسُوك قميصًا؟ قُلت: بلى: فكَساني قميصًا لم أَلْبَسْه إلا لَبْسَةً واحدة، وهو عندي؛ واجتزّ ذات يوم فأخذتُ جُزازة شَعرِه وقُلامَة أَظفاره فجعلتُ ذلك في قارُورة، فإذا متّ يا بُني فاغْسِلْني، ثم ٱجعل ذٰلك الشَّعر والأظفار في عَيْنَيَّ ومِنْخَري وفمي، ثم اجعل قميص رسول الله ﷺ شِعَارًا[2] من تحت كَفَني، إن نَفَع شيء نفع هذا.

* * *

لما احتُضِر عمرو بن العاص، جمع بَنِيه فقال: يا بَنِيّ، ما تُغنون عنّي من أمر الله شيئًا؛ قالوا: يا أبانا، إنَّه الموت، ولو كان غيرُه لَوَقَيْناك بأنفسنا؛ فقال: أَسْنِدُوني، فأَسْنَدوه. ثم قال: اللهمّ إنّك أمرتني فلم أَأْتمر، وزَجَرْتني فلم أزْدَجِر، اللهم لا قَوِيّ فأنتصر، ولا بَريء فأعتذر، ولا مُسْتكبر بل مُسْتغفر، أَستغفرك وأَتوب إليك، لا إله إلا أنت سُبحانك إني كُنتُ من الظالمين. فلم يَزَل يُكَرّرها حتى مات. قال: وأخبرنا رجالٌ من أهل المدينة أنَّ عمرو بن العاص قال لبنيه عند موته: إنّي لستُ في الشِّرك الذي لو متُّ عليه أُدْخِلتُ النار، ولا في الإسلام الذي لو متُّ عليه أُدْخِلت

---

(١) تضوّر: تلوّى من الوجع.

(٢) الشعار: ما يلبس فوق الجسد مباشرةً.

الجنّة، فمهما قَصّرْتُ فيه فإنّي مُستَمْسِك بلا إله إلا الله، وقَبَض عليها يده، وقُبض لوقته. فكانت يده تُفْتَح، ثم تُتْرَك فَتَنقبض. وقال لبَنيه: إنْ أنا متُّ فلا تَبْكوا عليّ، ولا يَتْبَعني مادحٌ ولا نائح، وشُنُّوا عليّ التراب شَنًّا، فليس جَنْبي الأيمن أولى بالتراب من الأيسر، ولا تجعلوا في قَبْري خَشبةً ولا حَجَرًا، وإذا وارَيْتُموني، فاقعدوا عند قَبْري قَدْرَ نَحْر جَزُور وتَفْصِيلها أَسْتَأْنس بكم.

* * *

وقال ويلسون:

أشكر الله على أنني أتممت واجبي.

* * *

وقال وليم هنتر:

ليت عندي من القوّة ما يمكنني من تحريك القلم، حتى أشرحَ سهولة الموت ولذته.

* * *

وقال إسماعيل صبري:

يا موتُ خُذْ ما أبـ ... قت الأيامُ والساعاتُ مني
بيني وبينك خُطوةٌ ... إنْ تَخطُها خفّفتَ عنّي

* * *

وقال شوبان:

أين حبيبتي[1] لقد وعدتني بأنني سأموت على ذراعيها.

* * *

(١) حبيبته هي الكاتبة جورج صاند.

الباب الخامس

عند القبر

الفصل الأول: القول عند المقابر

قال بعضُهم: خَرجنا مع زَيْد بن عليّ نُريد الحجَّ، فلما بَلغنا النّبَاح(١) وصِرْنا إلى مقابرها التفت إلينا، فقال:

لِكُلِّ أُناس مَقْبَر بِفنائهم فهم يَنقُصُون والقُبور تزيدُ
فما إنْ تَزالُ دَارُ حَيٍّ قد اُخْرِبتْ وقَبْرٌ بأَفْناءِ البيُوت جديدُ
هُمُ جِيرَةُ الأحيَاء أما مَزارُهم فدانٍ وأما المُلتقى فبَعِيدُ

* * *

وقال: مررتُ بيزيد الرَّقاشِيّ وهو جالسٌ بين المدينة والمقبرة، فقلت له: ما أَجْلسك هاهنا؟ قال: أَنْظُر إلى هذين العَسْكرين، فعسكرٌ يَقْذِف الأحياء وعسكرٌ يلْتقم الموتى. ثم نادى بأعلى صوته: يا أهل القُبور المُوحِشَة، قد نطق بالخَرَاب فَناؤُها، ومُهِّدَ بالتُّرَابِ بِنَاؤُها، فمحلُّها مُقْتَرب، وساكنُها مُغْتَرب، لا يتواصلون تواصلَ الإخوان، ولا يتزاورون تَزاور الجيران، قد طَحَنهم بكَلْكله البِلَى، وأكلتهم الجنادل والثَّرى.

* * *

(١) النباح: اسم موضع.

وكان عليُّ بن أبي طالب إذا دَخَل المقبرةَ قال: السلامُ عليكم يا أهل الدِّيار المُوحِشة، والمَحَالُ المُقْفِرَة، من المؤمنين والمُؤمنات، اللهم اغفرْ لنا ولهم، وتَجَاوَزْ بعفوك عنّا وعنهم. ثم يقول: الحمد لله الّذي جعل لنا الأرض كِفَاتًا[1]، أحياءً وأمواتا، والحمد لله الذي منها خَلَقنا و[جعل] إليها مَعَادنا، وعليها مَحْشرنا؛ طُوبى لمن ذَكر المَعاد، وعمل الحسنات، وقَنَع بالكَفَاف، ورَضِي عن الله عزّ وجلّ.

* * *

وكان النبيُّ ﷺ إذا دَخل المَقْبرة قال: السلامُ عليكم دارَ قوم مُؤمنين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون.

* * *

وكان الحَسَن البَصْرِيّ إذا دخل المقبرة قال: اللهم رَبَّ هذه الأجساد البالية، والعِظام النّخرة، التي خَرَجَت من الدُّنيا وهي بك مُؤمنة، أَدْخِلْ عليها رَوحًا منك وسَلامًا منّا.

* * *

وكان عليُّ بن الفَضْل إذا دَخل المقبرة يقول: اللهم ٱجعل وَفَاتَهُم نجاةً لهم مما يَكْرَهون، وٱجعل حِسابهم زيادة لهم فيما يُحبون.

* * *

---

(١) كفاتًا: ملجأ وحرزًا.

الفصل الثاني: الوقوف على القبور وتأبين الموتى

وَقف أعرابيٌّ على قَبْر رسول الله ﷺ فقال: قُلتَ فَقَبِلْنا، وأمرت فَحَفِظْنَا، وبَلَّغت عن ربّك فَسَمِعْنا. ﴿**وَلَوْ أنهم إذْ ظَّلَمُوا أَنْفُسَهم جاءُوك فَاْسْتَغْفَرُوا الله واْسْتَغْفر لهم الرَّسُولُ لَوَجَدُوا الله تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾(١). وقد ظَلمنا أَنْفُسنا وجِئْناك فاسْتَغْفِر لنا. فما بَقِيَت عينٌ إلا سالَتْ.

* * *

وقفت فاطمةُ عليها السلام على قبر أبيها ﷺ، فقالت:

إنا فَقَدْنَاكَ فَقْدَ الأَرضِ وابلها   وغابَ مُذْ غِبْتَ عَنَّا الوَحْيُ وَالكُتُبُ

فليتَ قَبْلكَ كان الموتُ صادَفَنا   لما نُعِيتَ وحالتْ دُونك الكُتُبُ

* * *

حَمَّاد بن سَلَمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال: لما فَرَغْنا من دَفْن رسول الله ﷺ أقبلَتْ عليٌّ فاطمةُ فقالت: يا أَنس، كيف طابَتْ أنفسكم أَنْ تَحْثُوا على وجه رسول الله ﷺ الترابَ، ثم بَكت ونادت: يا أَبتاه! أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه! مِن ربِّه ما أدناه، يا أبتاه! مَنْ ربُّه ناداه، يا أبتاه! إلى

(١) النساء: ٦٤.

جبريل نَنْعاه، يا أَبتاه! جَنَّة الفردَوْس مأواه. قال: ثم سَكتَتْ، فما زادت شيئًا.

ولما دُفِن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أَقْبل عبدُ الله بن مَسعود وقد فاتَتْه الصلاةُ عليه، فوَقَفَ على قَبْرِهِ يَبكي ويَطْرَح رِدَاءه، ثم قال: والله لئن فاتَتْني الصلاةُ عليك لا فاتَني حُسْنُ الثّناء، أما والله لقد كنتَ سَخِيًّا بالحقّ، بخيلاً بالباطل، تَرْضى حين الرِّضا، وتَسْخَط حين السُّخْط، ما كنتَ عَيّابًا ولا مَدَّاحًا، فجزاك الله عن الإسلام خَيْرًا.

* * *

ووقف عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه على قَبْرِ خَبّاب، فقال: رَحم الله خَبّابًا، لقد أَسْلَمَ رَاغِبًا، وجاهد طائعًا، وعاش زاهدًا، وأُبْتُلِيَ في جسمه فَصَبر، ولن يُضَيِّعَ الله أجرَ من أحسن عملاً.

* * *

ولما تُوُفي عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، قام الحسنُ بن عليّ رضي الله عنهما، فقال: أيها الناس، إنه قُبض فيكم الليلةَ رَجُلٌ لم يَسْبقه الأولون ولم يُدْركه الآخِرون، قد كان رسولُ الله ﷺ يَبْعَثه فيَكتنفه جبريلُ عن يمينه وميكائيل عن شِماله، لا يَنْثني حتى يَفْتح اللهُ له، ما تَرَك صَفْرَاء ولا بَيْضاء إلا سَبعمائة دِرهم أعدَّها لخادم له.

* * *

عبدُ الرحمن بن الحسن بن محمد بن مُصْعَب قال: لما مات داود الطائي

تكلَّم ابنُ السمّاك فقال: إنَّ داودَ نَظَر إلى ما بين يَدَيه من آخرته، فأَعْشَى بَصَرُ القلْب بصرَ العَيْن، فكأنه لم يَنْظر إلى ما إليه تَنْظرون، وكأنّكم لم تَنْظُروا إلى ما إليه نَظر، وأنتم منه تَعْجبون، وهو منكم يَعْجَب، فلما رآكم مَفْتُونين مَغْرورين، قد أَذْهَلت الدُّنيا عُقُولَكم، وأَماتت بحُبِّها قُلوبَكم، آستوحش منكم، فكنتَ إذا نظرتَ إليه حَسِبْتَه حيًا وَسْط أَمْوات. يا داود، ما أعجب شأنَك بين أهل زَمانك! أَهَنت نَفْسك وإنما تُريد إكرامَها، وأَتْعبتها وإنما تُريد راحتَها، أَخْشَنْت المَطعم وإنما تُريد طِيبَه، وأَخْشَنْتَ المَلبس وإنما تُريد لِينَه، ثم أَمَتَّ نَفْسك قبل أن تموت، وقَبَرْتَها قبل أن تُقْبر، وعذَّبتها قبل أن تُعذَّب، سَجَنْت نفسك في بَيْتك ولا مُحدِّث لها ولا جليس معها، ولا فِرَاش تحتك، ولا سِتْر على بابك، ولا قُلَّة تُبَرِّد فيها ماءَك، ولا صَفْحة يكون فيها غَدَاؤُك وعَشاؤك. يا داود، ما تَشْتَهي من الماء بارِدَه، ولا من الطعام طَيِّبه، ولا من اللِّباس لَيِّنه، بلى، ولكن زَهِدْتَ فيه لما بين يَدَيك، فما أَصغر ما بذلتَ وما أَحقَرَ ما تَرَكْتَ في جَنْبِ ما رَغِبت وأمَّلت! لم تَقْبل من الناس عَطيَّة، ولا من الإخوان هَدِيَّة، فلما مِتَّ شَهَرَك رَبُّك بِفَضْلك، وأَلْبَسَك رِدَاء عملك، فلو رأيتَ مَنْ حَضرَك علمت أن ربَّك قد أَكْرمَك وشرَّفك.

* * *

وَقف الأحنفُ بن قيس على قَبْر أخيه فأنشد:

فواللهِ لا أَنسى قَتيلاً رُزِئْتُه بجانب قَوْسَى ما مَشَيْتُ على الأرض
بلى إنّها تَعْفُو الكُلومُ وإنما نُوَكلُ بالأَدْنى وإن جلَّ ما يَمْضي

* * *

ووقف محمد بن الحَنَفِيَّة على قبر الحُسين بن علي رضي الله عنهما فَخَنَقَتْه العَبْرَة، ثم نَطَق فقال: يَرْحمك الله أبا محمد، فلئن عزّت حَيَاتُك فلقد هَدَّت وفاتُك، ولَنِعْم رُوح ضَمّه بَدَنُك، ولَنِعْمَ البَدن بَدَنٌ ضَمَّه كفَنُك، وكيف لا يكون كذلك وأنت بقيَّة وَلدِ الأنبياء، وسَليل الهُدَى، وخامِس أصحاب الكِسَاء[1]، غذَّتْك أكُفُّ الحقّ، ورُبيت في حِجْر الإسلام، فَطِبْت حيًّا وطِبْت مَيْتًا، وإن كانت أَنْفُسنا غيرَ طيِّبة بفِراقك، ولا شاكّة في الخِيار لك.

* * *

ووَقفت عائشةُ على قبر أبي بَكْر فقالت: نَضَّرَ الله وَجْهَك، وشكرَ لك صالح سَعْيك، فقد كُنْت للدنيا مُذِلًّا بإدْبارك عنها، وكنت للآخرة مُعِزًّا بإقبالك عليها، ولئن كان أجلَّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رُزْؤُك، وأعظم المصائِب بعده فقْدُك، إنّ كِتاب الله لَيعِد بِحُسْن الصبر فِيك وحُسْن العِوَض منك، فأنا أَنتجز موعود الله بحسن العَزاء عليك، وأستعيضه منك بالاستغفار لك، فعليك السلامُ ورحمة الله، توْديعَ غير قاليةٍ لك، ولا زارية على القضاء فيك، ثم انصرفت.

* * *

لما قُبِض أبو بكر رضي الله عنه سُجِّي بثَوْب، فارتَجَّت المدينةُ

(١) أصحاب الكساء هم رسول الله ﷺ وفاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم السلام، وكان رسول الله ﷺ جللهم معه بكساء ودعا لهم فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. وفي أصحاب الكساء نزل قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيرا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

بالبُكاء عليه ودَهِش القوم كيوم قُبِض رسول الله ﷺ، وجاء عليٌّ بن أبي طالب باكيًا مُسرعًا مسترجعًا حتى وَقف بالباب وهو يقول: رَحمك الله أبا بكر، كنت والله أولَ القوم إسلامًا، وأخلصهم إيمانًا، وأشدهم يقينًا، وأَعظمَهم عَناء، وأحفظَهم على رسول الله ﷺ، وأحربَهم على الإسلام، وأَحناهم على أهله، وأشبههم برسول الله ﷺ خُلُقًا وفَضْلاً وهَدْيًا وسمتًا؛ فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المُسلمين خيرًا، صدّقت رسول الله ﷺ حين كَذَّبه الناس، وواسيتَه حين بَخِلوا، وقمت معه حين قعدوا، سمّاك الله في كتابه صِدِّيقًا: **﴿والّذِي جَاء بالصِّدق وصَدَّق به﴾**[1] يُريد محمدًا ويُريدك. كنت والله للإسلام حِصْنًا، وعلى الكافرين عَذابًا، لم تُفْلَل حُجَّتك، ولم تَضْعَف بصيرتُك، ولم تَجْبُن نفسك. كنت كالجبل لا تُحَرِّكه العواصف ولا تُزيله القَواصف، كنت كما قال رسول الله ﷺ: ضعيفًا في بدنك، قويًا في أمر الله، متواضعًا في نَفْسك، عَظيمًا عند الله، قليلا في الأرض، كثيرًا عند المؤمنين، لم يَكن لأحد عِنْدك مَطْمَع، ولا لأحدٍ عندك هَوَادة، فالقويُّ عندك ضعيف حتى تأخذَ الحقَّ منه، والضعيفُ عندك قويٌّ حتى تأخذ الحقّ له، فلا حَرَمنا الله أجرَك، ولا أَضلنا بعدك.

* * *

وَقف عبد الملك بن مَرْوان على قبر معاوية فقال: تالله إن كنت إلا كما علمت، يُنْطقك العِلم، ويُسْكِتك الحِلم. ثم أنشأ يقول:

(١) الزمر: ٣٣ .

وما الدَّهر والأيام إلاّ كما ترى رَزِيّـة مـالٍ أو فِـراقُ حَـبِـيـبِ

* * *

الهيْثم بن عدي قال: لما هَلَك زياد ٱستعمل مُعاوية الضحّاك على الكُوفة، فلما دخلها، سأل عن قبر زياد، فدُلَّ عليه، فأتاه حتى وَقف به، ثم قال:

أبا الـمُغِيرة والدنيا مُفجِّعة وإنّ من غَرَّت الدُّنيا لَمَغْرُورُ
قد كان عِنْدك لِلْمَعْرُوف مَعْرفةٌ وكـان عِنْـدك لـلـنَّكْـرَاء تَـنْكـيرُ
لو خَلَّدَ الخَيرُ والإسلامُ ذا قَدَمٍ إذًا لَـخَـلَّـدَك الإسلامُ والـخيـرُ

والأبيات لحارثة بن زيد يَرْثي زيادًا.

* * *

قال المدائنيّ: لما دَفَن عليُّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه فاطمة عليهما السلام تَمثل عند قبرها، فقال:

لكُلّ ٱجْتماع من خَلِيلَيْن فُرْقَةٌ وكلُّ الذي دون الممات قَلِيلُ
وإنّ ٱفتقادِي واحدًا بعد واحدٍ دليل على أن لا يَدُومَ خَليل

* * *

وَقف أبو ذرّ الهَمْداني على قبر ٱبنه ذرّ فقال: يا ذَرّ، شغلني الحزنُ لك عن الحُزْن عليك، فليت شِعري ما قُلتَ وما قيل لك. ثم قال: اللهم إنّي قد وهبتُ لك إساءَته إليّ، فَهَبْ له إساءَته إليك. فلمّا انصرف عنه التفتَ إلى قبره فقال: يا ذرّ، قد انصرفنا وتَرَكْناك، ولو أقمنا ما نَفعناك.

* * *

وَقفت أعرابيّة على قبر أبيها فقالت: يا أبتِ، إنَّ في الله تبارك وتعالى من فَقْدِك عِوَضًا، وفي رسول الله ﷺ من مُصِيبتك أُسْوة، ثم قالت: اللهم، نَزل بك عبدُك مُقْفِرًا من الزاد، مُخْشَوْشِن المِهاد، غَنِيًّا عمّا في أيدي العباد، فقيرًا إلى ما في يَدَيك يا جواد، وأنت، أي ربّ، خيرُ من نزل به المُؤمِّلون، واسْتَغْنىٰ بفَضْلِهِ المقِلُّون، ووِلَجَ في سَعة رَحْمَته المُذْنِبون. اللهم فَلْيكُن قِرَى عبدك منك رحمتَك، ومِهادُه جنّتك، ثم ٱنصرفت.

* * *

توفّي رجل كان مُسْرِفًا على نفسه بالذُّنوب فتحامَى الناسُ جِنَازَته، فبلغ عمرَ بن ذرّ خبرُه، فأَوْصى إلى أهله أن خُذوا في جِهازه فإذا فَرَغتم فآذنوني، ففعلوا وشَهِدَه عمر بن ذَرّ وشهده الناسُ معه، فلما فَرَغ من دَفْنِه وقفَ عمر بن ذرّ على قبره فقال: يَرْحمك الله أبا فلان، فلقد صَحِبْت عُمرَك بالتَّوحيد، وعَفَّرْت لله وَجْهك بالسُّجود، فإن قالوا مُذْنب وذو خطايا، فمن منّا غير مُذْنب وغيرُ ذِي خَطايا؟

* * *

قال الأَصْمعيّ: دخلتُ بعضَ مَقابر الأعراب ومعي صاحبٌ لي فإذا جاريةٌ على قبر كأنها تِمْثال وعليها من الحَلْي والحُلَل ما لم أَرَ مِثْلَه وهي تَبْكي بعين غَزِيرة وصوت شَجِيّ. فالتفتُّ إلى صاحبي. فقلتُ: هل رأيتَ أعجَب من هذه؟ قال: لا والله، ولا أَحْسَبني أراه. ثم قلتُ لها: يا هذه، إني أراك حَزِينة وما عليك زِيّ الحُزْن: فأنشأت تقول:

فإنْ تَسْألاني فِيم حُزْني فإنّنِي رَهِينةُ هَذا القَبْر يا فَتَيانِ
وإني لأسْتَحْيِيه والتُّرْب بيننا كما كنْتُ أَسْتَحْييه حين يَرَاني
أَهابُك إجلالاً وإن كُنتَ في الثَّرى مَخافةَ يومِ أن يَسُوك لِسَاني

ثم اندفعت في البُكاء وجعلت تقول:

يا صاحبَ القَبْر يا مَنْ كان يَنْعَم بِي بالاً ويُكْثِر في الدُّنْيا مُوَاساتِي
قد زُرْتُ قَبْرك في حَلْي وفي حُلَل كأَنني لستُ مِن أَهْلِ المُصِيبات
أَرَدْتُ آتِيكَ فيما كنتُ أعرفُه أَنْ قد تُسَرُّ به من بَعضِ هَيْئَاتي
فمَن رَآني رَأى عَبْرى مُوَلَّهَةً عَجيبةَ الزِّيِّ تَبْكِي بَينَ أمْوات

* * *

وقال: رأيتُ بصحراء جاريةً قد أَلْصقت خدَّهَا تَبْكي بَينَ أمْوات وتقول:

خَدِّي تَقيك خُشُونةَ اللَّحْدِ وقَلِيلةٌ لك سَيِّدي خَدِّي
يا ساكنَ القَبْر الذي بوَفاته عَمِيتْ عَليَّ مسالِكُ الرُّشد
اسْمَع أَبُثُّك عِلَّتي فلعلَّني أُطْفِي بذلك حُرْقَة الوَجْد

* * *

الفصل الثالث: ما كُتب على القبور

تُوُفِّيَ رَجُلٌ مِنْ كِنْدَةَ فكُتِبَ عَلَى قَبْرِهِ هٰذِهِ الأَبْيَاتُ:

يَا وَاقِفِينَ أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُوا أَنَّ ٱلْحِمَامَ بِكُمْ عَلَيْنَا قَادِمُ
لَوْ تَنْزِلُونَ بِشِعْبِنَا لَعَرَفْتُمُ أَنَّ ٱلْمُفَرِّطَ فِي ٱلتَّزَوُّدِ نَادِمُ
لاَ تَسْتَغِرُّوا بِٱلْحَيَاةِ فَإِنَّكُمْ تَبْنُونَ وَٱلْمَوْتُ ٱلْمُفَرِّقُ هَادِمُ
سَاوَى ٱلرَّدَى مَا بَيْنَنَا فِي حُفْرَةٍ حَيْثُ ٱلْمُخَدَّمُ وَاحِدٌ وَٱلْخَادِمُ

* * *

وَمِمَّا وُجِدَ عَلَى قَبْرٍ:

إِنَّ ٱلْحَبِيبَ مِنَ ٱلْأَحْبَابِ مُخْتَلَسُ لاَ يَمْنَعُ ٱلْمَوْتَ بَوَّابٌ وَلاَ حَرَسُ
فَكَيْفَ تَفْرَحُ بِٱلدُّنْيَا وَلَذَّتِهَا يَا مَنْ يُعَدُّ عَلَيْهِ ٱللَّفْظُ وَٱلنَّفَسُ
لاَ يَرْحَمُ ٱلْمَوْتُ ذَا جَاهٍ لِعِزَّتِهِ وَلاَ ٱلَّذِي كَانَ مِنْهُ ٱلْعِلْمُ يُقْتَبَسُ
قَدْ كَانَ قَصْرُكَ مَعْمُورًا لَهُ شَرَفٌ فَقَبْرُكَ ٱلْيَوْمَ فِي ٱلأَجْدَاثِ مُنْدَرِسُ

* * *

قَالَ ٱبْنُ الزَّقَّاقِ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَات وَأَوْصَى أَنْ تُكْتَبَ عَلَى قَبْرِهِ:

أَإِخْوَانَنَا وَٱلْمَوْتُ قَدْ حَالَ دُونَنَا وَلِلْمَوْتِ حُكْمٌ نَافِذٌ فِي ٱلْخَلائِقِ

سَبَقْتُكُمْ لِلْمَوْتِ وٱلْعُمْرُ طَيَّهُ   وَأَعْلَمُ أَنَّ ٱلْكُلَّ لاَ بُدَّ لاَحِقِي
بِعَيْشِكُمْ أَوْ بِٱضْطِجَاعِيَ فِي ٱلثَّرى   أَلَم نَكُ فِي صَفْوٍ مِنَ ٱلْعَيْشِ رَائِقِ
فَمَنْ مَرَّ بِي فَلْيَمضِ بي مُتَرَحِّمَا   وَلاَ يَكُ مَنسِيًّا وَفَاءُ ٱلْأَصَادِقِ

* * *

أَمَرَ أَبُو ٱلصَّلْتِ ٱلإِشْبِيلِيُّ أَنْ تُكْتَبَ هٰذِهِ ٱلأَبْيَاتُ عَلَى قَبْرِهِ:

سَكَنْتُكِ يَا دَارَ ٱلْفَنَاءِ مُصَدِّقًا   بِأَنِّي إِلَى دَارِ ٱلْبَقَاءِ أَصِيرُ
وَأَعْظَمُ مَا فِي ٱلْأَمْرِ أَنِّي صَائِرٌ   إِلَى عَادِلٍ فِي ٱلْحُكْمِ لَيْسَ يَجُورُ
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ أَلْقَاهُ عِنْدَهَا   وَزَادِي قَلِيلٌ وَٱلذُّنُوبُ كَثِيرُ
فَإِنْ أَكُ مَجزِيًّا بِذَنْبِي فَإِنَّنِي   بِشَرِّ عِقَابِ ٱلْمُذْنِبِينَ جَدِيرُ
وَإِنْ يَكُ عَفْوٌ ثَمَّ عَنِّي وَرَحْمَةٌ   فَثَمَّ نَعِيمٌ زَائِدٌ وَسُرُورُ

* * *

حُفِرَتْ هٰذِهِ ٱلأَبْيَاتُ عَلَى قَبْرِ ٱبْنِ بَاقٍ وَهِيَ مِنْ تَصْنِيفِهِ:

تَرَحَّمْ عَلَى قَبْرِ ٱبْنِ بَاقٍ وَحَيِّهِ   فَمِنْ حَقِّ مَيْتِ ٱلْحَيِّ تَسْلِيمُ حَيِّهِ
وَقُلْ أَمَّنَ ٱلرَّحْمَانُ رَوْعَةَ خَائِفٍ   لِتَفْرِيطِهِ فِي ٱلْوَاجِبَاتِ وَغَيِّهِ
وَإِنِّي بِفَضْلِ ٱللهِ أَوْثَقُ واثِقٍ   وَحَسْبِي وَإِن أَذْنَبْتُ حَسْبُ صَفِيِّهِ

* * *

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ ٱلْمَقَّرِيُّ ٱلْخَيَّاطُ عَلَى لِسَانِ مَيْتٍ:

أَيُّهَا ٱلزَّائِرُونَ بَعْدَ وَفَاتِي   جَدَثًا ضَمَّنِي وَلَحْدًا عَمِيقَا
سَتَرَوْنَ ٱلَّذِي رَأَيْتُ مِنَ ٱلْمَوْ   تِ عِيَانًا وَتَسْلُكُونَ طَرِيقَا

نَظَمَ أَسْعَدُ مُصْطَفَى ٱللُّقَيْمِي قَبْلَ مَوْتِهِ تَارِيخًا لِقَبْرِهِ:

قَبْرٌ بِهِ مَنْ أَوْثَقَتْهُ ذُنُوبُهُ وَغَدَا لِسُوءِ فِعَالِهِ مُتَخَوِّفَا
قَدْ ضَاعَ مِنْهُ عُمْرُهُ بِبَطَالَةٍ وَٱلْعَيْشُ مِنْهُ بِٱلتَّكَدُّرِ مَا صَفَا
ماذَا طَوَى قَبْرُ ٱللُّقَيْمِي أَرِّخُوا مُسْتَمْنِحٌ لِلْعَفْوِ أَسْعَدُ مُصْطَفَى

* * *

لَمَّا قُتِلَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنٍ ٱلْحِمْيَرِيُّ دُفِنَ فِي صَنْعَاءَ بِمَقْبَرَةٍ وَوُضِعَ فِي سَرِيرِهِ عِنْدَ رَأْسِهِ لَوْحٌ قَدْ كُتِبَتْ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتُ:

أَنَا ٱبْنُ ذِي يَزَنٍ مِنْ فَرْعِ ذِي يَمَنٍ مَلَكْتُ مِنْ حَدِّ صَنْعَاءَ إِلَى عَدَنِ
جَلَبْتُ مِنْ فَارِسٍ جَيْشًا عَلَى عَجَلٍ فِي ٱلْبَحْرِ أَحْمِلُهُمْ فِيهِ عَلَى ٱلسُّفُنِ
حَتَّى غَزَوْتُ بِهِمْ قَوْمًا مُهَاجِرَةً فِي ٱلْبَرِّ جَاسُوا خِلَالَ ٱلْحَيِّ مِنْ يَمَنِ
بِٱلْخَسفِ وَٱلذُّلِّ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ ذُوقُوا ثِمَارَ ذَوَاتِ ٱلْحِقْدِ وَٱلإِحَنِ
فَأَوْقَعُوا بِهِمِ وَٱلدَّهْرُ ذُو دُوَلٍ حَتَّى كَأَنَّ مَغَارَ ٱلْقَوْمِ لَمْ يَكُنِ
حَتَّى إِذَا ظَفِرَتْ نَفْسِي بِمَا طَلَبَتْ وَزَالَ مَا كَانَ فِي قَلْبِي مِنَ ٱلْحَزَنِ
وَنِلْتُ أَكْثَرَ مِمَّا كُنْتُ آمُلُهُ مِنْ قَتْلِي ٱلْحُبْشَ حَتَّى طَابَ لِي وَطَنِي
جَاءَ ٱلْقَضَاءُ بِمَا لاَ يُستَطَاعُ لَهُ دَفْعٌ وَلاَ يُشْتَرى يا قَوْمُ بِٱلثَّمَنِ
مِنْ بَعْدِ مَا جُبْتُ أَحْوالاً مُصَرَّمَةً قُطْرَ ٱلْبِلاَدِ فَلَمْ أَعْجِزْ وَلَمْ أَهُنِ
قَدْ صِرْتُ مُرْتَهَنًا فِي قَاعِ مُظْلِمَةٍ لِلّٰهِ دَرِّيَ مِنْ ثَاوٍ وَمُرْتَهَنِ

* * *

كانَ على قَبرِ يَعْقوب بن لَيث مَكتوب هذه الأبيات عملها قَبل مَوته،

وأمَر أن تُكتب على قبره، وهي هذه:

سَلامٌ على أهْلِ القُبُورِ الدَّوارِسِ كأَنَّهُمُ لم يَجْلِسُوا في المَجَالِسِ
وَلَمْ يَشْرَبُوا مِنْ بَارِدِ الماءِ شَرْبَةً وَلَمْ يَأْكُلُوا ما بَيْنَ رَطْبٍ وَيَابِسِ
فَقَدْ جاءَني المَوْتُ المَهُولُ بِسَكْرَةٍ فَلَمْ تُنجِنِي مِنْهُ أُلوفُ الفَوَارِسِ
فَيَا زائِرَ القَبْرِ اتّعِظْ واعْتَبِرْ بِنَا وَلاَ تَكُ في الدُّنْيَا هُدِيتَ بآنِسِ

* * *

لما حَضرت أبا العتاهية الوفاةُ أَوْصى بأن يُكْتَب على قَبْرِهِ هذه الأبيات الأربعة:

أُذْنَ حَيٍّ تَسَمَّعِي اسْمعِي ثمّ عِي وَعي
أنا رَهْنٌ بِمَضْجَعي فاحذَرِي مثلَ مَصْرَعي
عِشْتُ تِسْعينَ حِجّةً ثم وافيتُ مَضجَعي
ليس شيءٌ سِوى التُّقَى فخُذِي منه أو دَعِي

وعارَضه بعضُ الشعراء في هذه الأبيات، وأوْصى بأن تُكتب على قَبره أيضًا فكُتبت، وهي:

أَصْبح القبرُ مَضجَعي ومَحلِّي ومَوْضِعي
صَرَعَتْني الحُتوف في الـ ـتُّرْب يا ذُلَّ مَصْرَعي
أينَ إخوانيَ الَّذيـ ـنَ إليهمْ تَطلُّعي
مُتّ وَحْدِي فلم يَمُتْ واحدٌ مِنهُمُ مَعي

* * *

وُجِد على قَبْر جارية إلى جَنْب قبر أبي نُواس ثلاثةُ أبيات، فقِيل إنها من قول أبي نواس، وهي:

أقول لِقَبْر زُرْتُه مُتَلَثِّمًا[1] سَقَى الله بَرْدَ العفو صاحبةَ القَبْرِ
لقد غَيَّبُوا تحت الثَّرَى قَمَرَ الدُّجى وشَمْسَ الضُّحى بين الصَّفائح والعَفْرِ[2]
عَجِبْت لعينٍ بعدَها مَلَّت الْبُكا وقَلْبٍ عليها يَرْتَجي راحةَ الصَّبر

* * *

قال الرِّياشي: وُجدت تحت الفِراش الذي مات عليه أبو نُواس رُقعةٌ مكتوب فيها هذه الأبيات:

يا ربِّ إنْ عَظُمت ذُنوبي كَثْرَةً فلقد علمتُ بِأَنَّ عَفْوَك أَعْظَمُ
إن كان لا يَرْجوك إلاّ مُحْسِنٌ فَبِمن يَلوذ ويَسْتَجير المُجْرِمُ
أَدْعُوك ربِّ كما أمرتَ تَضرُّعًا فإذا رَدَدْتَ يَدِي فمن ذا يَرْحم
ما لي إليك وسيلةٌ إلاّ الرّجا وجَميلُ عَفوك ثمّ أني مُسْلِمُ

* * *

قال الخُشنيّ: أخبرنا بعضُ أصحابنا ممن كان يَغْشى مجلس الرِّياشي، قال: رأيتُ على قبر أبي هاشم الإياديّ بواسط:

الموتُ أَخْرَجَني من دار مَمْلكتي والموتُ أَضْرَعني من بَعد تَشْرِيفي
لله عَبْدٌ رَأَى قَبري فأَعْبَرَه وخاف من دَهْره رَيْبَ التَّصارِيف

* * *

(١) متلثّمًا: أي باغيًا لثمه.
(٢) العفر: التراب.

قال الأصمعيّ: أخذ بيدي يحيى بن خالد بن بَرْمك فوقفني على قبره بالحِيرة فإذا عليه مكتوب:

إنَّ بَنِي المُنذر لما انقضَوْا ... بحيثُ شاد البَيْعَةَ الراهبُ
تنفَح بالمِسْك مَحاريبُهم ... وعنبرٍ يَقْطِبه[1] قاطِبُ
والخُبز واللَّحم لهم راهنٌ ... وقَهْوة راوُوقها[2] ساكِب
والقُطْنُ والكَتّان أثوابُهم ... لم يَجْلِب الصُّوفَ لهم جالِب
فأَصْبَحوا قُوتًا لدود الثَّرى ... والدَّهرُ لا يَبْقى له صاحِب
كأنما حياتُهم لُعْبَةٌ ... سَرَى إلى بِينٍ[3] بها راكب

* * *

قال الشَّيبانيّ: وُجد مكتوبًا على بعض القبور:

مَلَّ الأحِبّةُ زَوْرتي فَجُفِيتُ ... وسَكنتُ في دار البِلَى فَنُسِيتُ
الحيُّ يَكْذِب لا صَدِيقَ لِمَيِّتٍ ... لو كَان يَصْدُق مات حين يَمُوتُ
يا مُؤْنِسًا سَكن الثَّرى وَبَقيتُ ... لو كنتُ أَصْدُق إذ بليتَ بَليتُ
أو كان يَعْمَى للبُكاء مُفَجَّع ... من طُول ما أَبكِي عليك عَمِيتُ

* * *

(١) يقطبه: يمزجه.
(٢) الراووق: الإناء الذي يُصَفَّى به الشراب.
(٣) بين: موضع في الحيرة.

الباب السادس

في الرثاء

الفصل الأول: في رثاء الذات

قال مالك بن الرَّيْب يَرْثي نَفْسه ويصِف قَبْرَه، وكان خرَج مع سَعيد ابن عثمان بن عفّان لما وَلِيَ خُراسان، فلما كان ببعض الطَّريق أراد أن يَلْبَس خُفَّه، فإذا بأفعى في داخلها فلسعَتْه، فلما أَحسّ الموت ٱسْتَلقى على قَفاه، ثم أنشأ يقول:

دَعاني الهَوَى من أهل أُودَ وصُحْبَتي بذي الطَّبَسيْن فَٱلتفتُّ ورَائِيَا(١)

فما رَاعني إلاّ سَوَابقُ عَبْرَةٍ تقَنَّعتُ منها أنْ أُلاَمَ رِدائيا(٢)

ألم تَرَني بِعْتُ الضلالةَ بالهُدَى وأَصبحتُ في جَيْش ابن عَفّان غازيا

فللّه دَرِّي حين أَتْرُك طائعًا بَنِيَّ بأَعْلَى الرقْمَتين وماليا

ودَرّ كبيرَيَّ اللذين كِلاهما عليَّ شفيقٌ ناصحٌ لو نهانيا

ودرُّ الظِّبَاء السانحات عَشيَّةً يُخَبِّرْن أنّي هالكٌ من أماميا

تقول ٱبنتيّ لما رأت وَشْك رِحْلتي سِفَارُك هذا تارِكي لا أبا ليا

ألا ليتَ شِعْري هل بَكتْ أمُّ مالك كما كنتُ لو عالَوْا نَعِيَّكِ باكيا(٣)

على جَدَث قد جرَّت الرِّيح فوقَه تُرَابا كسَحْق المَرْزبانيّ هابيا(٤)

فيا صاحَبيْ رَحْلي دَنا الموت فاحفِرَا برابية إنّي مُقيمٌ لياليا

---

(١) أود وذو الطبسين: موضعان. (٢) أي تقنّعت ردائي لكيلا يروني الناس باكيًا فيلوموني.

(٣) عالوا: هنا بمعنى نشروا وأعلنوا. (٤) المرزبانيّ: كساء من خزّ. هابيًا: منتشرًا.

وخُطّا بأطراف الأسِنَّة مَضْجَعِي | ورُدَّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدَائيا
ولا تَحْسداني بارَكَ الله فيكما | من الأرض ذاتِ العَرْض أن تُوسِعا ليا
خُذَاني فَجُرَّاني بِبُرْدِي إليكما | وقد كنتُ قبلَ اليوم صَعْبًا قِيَاديا
تفَقَّدْت مَنْ يَبكي عليّ فلم أَجِدْ | سوى السَّيف والرُّمح الرُّدَيْنِيّ باكيا
وأَدْهَم غِرْبيب[1] يجرُّ لِجَامَه | إلى الماء لم يَترك له الموتُ ساقيا
وبالرَّمل لو يَعْلمَنْ عِلْمِيَ نِسْوَةٌ | بَكَيْنَ وفَدَّيْنَ الطبيبَ المُدَاوِيا
عَجُوزِي وأُخْتاي اللَّتان أُصِيبتا | بِمَوتي وبِنْتٌ لي تَهِيج البَوَاكيا
لَعَمْري لَئِن غالت خُراسانُ هامتي | لقد كنتُ عن بابَيْ خُرَاسان نائيا
تَحَمَّل أصحابي عِشَاءً وغادَرُوا | أخا ثِقَةٍ في عَرْصَة الدَّار ثاوِيا
يَقُولون لا تَبْعَد وهم يَدْفِنُونني | وأينَ مَكان البُعْدِ إلاّ مَكانيا

* * *

وقال رجُلٌ من بني تَغْلب يقال له أُفْنُون، وهو لَقبه، واسمه صُرَيم بن مَعْشر بن ذُهْل بن تَيْم، ولَقِيَ كاهنًا في الجاهليَّة، فقال له: إنك تموت بمكان يقال له إلَاهَة. فمكث ما شاء الله، ثم سافر في رَكْب من قومه إلى الشام فأَتَوْها، ثم انصرفوا فضلّوا الطَّريق، فقالوا لرجل: كيف نَأخذ؟ فقال: سِيرُوا حتى إذا كنتم بمكان كذا وكذا ظَهَر لكم الطريق ورَأَيتم إلاهة - وإلاهة قارة بالسّماوة - فلما أتَوْها نزل أصحابُه وأبى أن يَنْزِل، فبينما ناقتُه تَرْتعي وهو راكبها إذ أَخَذتْ بِمِشْفر ناقته حَيَّة، فاحتكت الناقةُ بمِشْفرها فلدغتْ ساقَه؛ فقال لأخيه وكان معه، واسمه مُعاوية: احفر لي فإني ميّت، ثم تَغنَّى قبل أن يموت يبكي نفسه:

(١) غربيب: شديد السواد.

فلستُ على شيءٍ فُروحَنْ مُعاويا ... ولا المُشفِقاتُ إذ تَبِعْنَ الحوَازيا[1]
ولا خَيْرَ فيما يَكْذِب المرءُ نفسَه ... وتَقْوَالِه للشيء يا ليت ذا ليا
وإن أعْجَبَتك الدهرَ حالٌ من آمرئ ... فَدَعْه ووَاكِلْ حاله والليّاليا
يَرُحْن عليه أو يُغَيِّرْن ما به ... وإنْ لم يَكُنْ في جوفه العيش وانيا
فطأ مُعْرضًا إنّ الحُتُوف كثيرةٌ ... وإنَّك لا تبقى بنَفْسِك باقيا[2]
لعَمْرُك ما يَدْرِي آمرؤ كيف يَتَّقِي ... إذا هو لم يَجْعل له الله وَاقيا
كفى حَزنًا أن يَرْحل الرَّكب غُدْوَةً ... وأُنْزِلَ في أَعْلَى إلاهة ثاويا

ويروى أنّه مات، فَدَفَنُوه بها.

* * *

وقال هُدْبة العُذْرِي لما أَيْقن بالموت:

أَلاَ عَلِّلاني قبل نَوْح النوائح ... وقبلَ أطّلاع النَّفس بين الجَوَانحِ
وقَبل غَدٍ يا لَهْفَ نفسي على غَدٍ ... إذا راح أَصْحَابي ولستُ برائح
إذا راحَ أَصحابي بِفَيْض دُموعهم ... وغُودِرتُ في لَحْدٍ عليّ صَفَائحي
يَقولون هل أَصْلَحْتُمُ لأخِيكمُ ... وما الرمْس في الأرض القِوَاء بصالح

* * *

وقال محمد بن بَشير:

ويلٌ لمن لم يَرْحَمِ اللهُ ... ومَنْ تَكون النارُ مَثْوَاهُ

(١) فلست على شيء أي لست أقدر على شيء. فروحن: اتركني. والمشفقات: ذوات الشفقة. والحوزي: الكواهن. أي لا أقدر أن أدفع عن نفسي شيئًا كتب علي، وكذا النساء المشفقات إذ تبعن الكواهن يسألنهن لا يغنين عمن أشفقن عليه شيئًا.

(٢) طأ: فعل الأمر من وطيء بمعنى داس. الحتوف: جمع الحتف، وهو الموت.

والوَيْل لي من كل يومٍ أَتى يُذَكِّرُني الموتَ وأَنْسَاه
كأنّه قد قيل في مَجْلس قد كنتُ آتيه وأغْشاه:
صار البَشيريّ إلى رَبّه يَرْحَمُنا الله وإيّاه

* * *

الفصل الثاني: في رثاء الولد

قال ابن عبد ربه في رثاء ولده:

بَلِيت عِظامُك والأسَى يَتجدَّد ... والصَّبْر يَنْفَد والبُكا لا يَنْفَدُ
يا غائبًا لا يُرْتَجَى لإيَابه ... ولقائه دونَ القِيَامة مَوْعدُ
ما كان أَحْسَنَ مُلْحَدًا ضُمِّنْته ... لو كان ضَمَّ أباك ذاك المُلْحَدُ
باليأسِ أَسْلُو عنك لا بتجلّدِي ... هيهاتَ أين من الحَزين تَجَلُّدُ

* * *

وقال فيه أيضًا:

وَاكَبِدًا قد قُطِّعت كَبِدي ... وحَرَّقتها لواعجُ الكَمدِ
ما مات حَيٌّ لميِّتٍ أَسَفًا ... أَعذر من والدٍ على وَلدِ
يا رَحْمةَ الله جاوِرِي جَدَثًا ... دفَنْتُ فيه حُشَاشتي بِيَدي
ونَوِّرِي ظُلْمة القُبور على ... مَن لم يَصِلْ ظُلْمُه إلى أحدِ
مَن كان خِلْوًا من كل بائقةٍ ... وطَيِّبَ الرُّوح طاهرَ الجَسَدِ
يا موت، يَحيى لقد ذهبتَ به ... ليس بِزُمَّيْلَةٍ[1] ولا نَكِدِ
يا مَوْتَه لو أقلتَ عَثْرته ... يا يومَه لو تركتَه لغَدِ

(١) الزميل: الجبان الضعيف.

يا موتُ لو لم تَكُن تُعاجله   لكان لا شكّ بَيْضَةَ البَلد[1]
أو كنتَ راخيتَ في العِنان له   حاز العُلا واحتَوَى على الأمد[2]
أَيَّ حُسام سَلبت رَوْنَقَهُ   وأَيَّ رُوح سَللتَ من جَسدِ
وأَيَّ ساقٍ قَطعتَ من قَدَمٍ   وأَيَّ كَفٍّ أزلْت من عَضُدِ
يا قَمرًا أَجْحف الخُسوف به   قَبل بُلوغ السَّواء في العَدَد[3]
أيُّ حَشًا لم تَذُب له أَسَفًا   وأيّ عَيْن عليه لم تَجُدِ
لا صَبْر لي بَعْدَه ولا جَلَدٌ   فُجِعْتُ بالصَّبر فيه والجَلَد
لو لم أَمُتْ عند مَوْته كمَدًا   لَحُقّ لي أن أموت من كَمَدي
يا لَوْعَةً ما يزال لاعِجُها   يَقْدح نارَ الأسى على كَبِدي

وقال فيه أيضًا:

لا بَيْتَ يُسْكن إلا فارَق السَّكَنَا   ولا أَمتلا فَرَحًا إلا أَمتلا حَزَنَا
لَهْفِي على مَيّت مات السُّرور به   لو كانَ حَيًّا لأَحْيَا الدينَ والسُّنَنا
واهًا عليك أبا بَكْرٍ مُرَدَّدةً   لو سَكَّنَتْ ولَهًا أو فَتَّرت شَجَنا
إذَا ذكرتُك يومًا قُلت وا حَزَنا   وما يَرُد عليّ القَوْلُ: وا حَزَنا
يا سيّدي ومَراح الرُّوح في جَسَدي   هلاَّ دَنا الموتُ منّي حين مِنْك دنا
حتى يعود بنا في قَعْر مُظلْمة   لَحْدٍ ويُلْبسَنا في واحدٍ كَفَنا
يا أطيبَ الناس رُوحًا ضَمَّه بَدَنٌ   أَسْتَودعُ اللهُ ذاك الروح والبَدَنا
لو كنتُ أُعطَى به الدنيا مُعاوَضةً   منه لما كانت الدُّنيا له ثَمنا

(١) بيضة البلد: السيد.
(٢) الأمد: الغاية.
(٣) السواء: يريد ليلة أربع عشرة، أي أنه لم يكتمل.

وقال أبو ذُؤيب الهُذليّ، وكان له أولادٌ سبعة فماتوا كلّهم إلّا طفلاً، فقال يرثيهم:

أَمِنَ المَنون وَرَيْبه نَتَوجَّعُ والدَّهر ليس بمُعْتِب من يَجْزَعُ
قالت أُمَيمةُ ما لجِسْمك شاحبًا منذ ابتُذِلْت ومثلُ مالك يَنْفعُ
أم ما لجسمك لا يُلائِمُ مَضْجَعًا إلا أَقَضَّ عليك ذاك المَضْجعُ
فأجبتُها أن ما لجِسْمي إنّه أَوْدَى بَنيّ من البِلاَد فودَّعوا
أَوْدَى بَنِيّ وأَعقَبُوني حَسْرةً بعد الرُّقاد وعَبْرةً ما تُقلِعُ
سَبَقُوا هَوَيَّ وأَعْنَقُوا لهواهُم فَتُخرِّموا ولكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ[1]
فَبقِيتُ بعدهمُ بعَيْشٍ نَاصِبٍ وإخَال أنّي لاحقٌ مُسْتتبعُ[2]
ولقد حَرَصْت بأن أُدافع عنهم وإذا المَنيَّة أقبلتْ لا تُدْفَعُ
وإذا المنيَّة أَنْشَبت أظفارَها ألفيتَ كلَّ تَمِيمة لا تَنْفعُ[3]
فالعينُ بَعدهمُ كأنّ حِدَاقها سُمِلت بشَوْك فهي عُورٌ تَدْمَعُ[4]
حتى كأنّي للحوادثِ مَرْوَةٌ بِصَفا المُشرَّق كل يوم تُقرعُ[5]
وتَجلُّدِي للشامِتين أُرِيهمُ أنّي لِرَيْب الدّهر لا أَتَضَعْضَعُ

وقال في الطِّفل الذي بقي له:

والنَّفسُ راغبةٌ إذا رَغَّبْتَها وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقنَعُ

وقال الأصمعي: هذا أبْدَع بَيْت قالته العرب.

(١) هوَيّ: هواي، وهذا لغة. أعنقوا: تبع بعضهم بعضًا. تخرّموا: أُخِذوا واحدًا واحدًا.
(٢) ناصب: فيه نصب، أي تعب.
(٣) التميمة: ما يعلّق على الصدر لدفع الأذيّة.
(٤) حداقها: حدقتها.
(٥) المروة: الصخرة. وصفا المشرّق: اسم موضع. يقول: كأنّما أنا مروة في السوق تقرعها أقدام الناس.

وقال أعرابيٌّ يَرْثي بَنِيه:

أَسُكّان بَطْن الأرْض لو يُقْبَلُ الفِدَا ... فَدَينا وأعْطينا بكم ساكِني الظَّهْرِ
فيَا ليتَ مَن فيها عليها وليتَ مَن ... عليها ثَوَى فيها مُقِيمًا إلى الحَشْر
وقاسَمني دَهْرِي بَنيّ بِشَطْره ... فلما تَقَضّى شَطْرُه مالَ في شَطْري[1]
فصارُوا دُيونًا للمَنايا ولم يَكُن ... عليهم لها دَيْن قَضَوْه على عُسْرِ
كأنهمُ لم يَعْرف الموتُ غيرَهم ... فثُكْلٌ على ثُكل وقَبْر إلى قَبْرِ
وقد كنتُ حَيَّ الخَوْفِ قبل وَفاتهم ... فلما تُوفّوا مات خَوْفي من الدَّهرِ
فلله ما أَعْطى ولله ما حَوَى ... وليس لأيّام الرزيَّة كالصَّبر

* * *

وقيل لأَعرابية مات ابنُها: ما أحسنَ عزاءَك؟ قالت: إنّ فَقْدي إيّاه آمنّني كلَّ فَقْدٍ سواه، وإن مُصيبتي به هَوّنت عليّ المصائب بعده. ثم أنشأت تقول:

مَن شاء بعدك فَلْيَمُتْ ... فَعَليك كنت أُحاذِرُ
كُنتَ السَّوادَ لناظري ... فبكى عليكَ الناظِرُ
ليتَ المنازلَ والدِّيا ... رَ حَفائرٌ ومَقابرُ
إنّي وغَيري لاَ محا ... لَةَ حيثُ صِرْتَ لصائرُ

أخذ الحسنُ بن هانئ معنى هذا البيت الأول، فقال في الأمين:

طَوَى الموتُ ما بَيْني وبين محمد ... وليس لِمَا تَطْوِي المنِيّة ناشِرُ
وكنتُ عليه أَحْذر الموتَ وحدَه ... فلم يَبْق لي شيءٌ عليه أُحاذِرُ
لئن عَمَرت دُورٌ بمن لا أُحبّه ... لقد عَمَرتْ ممّنْ أُحبّ المقابرُ

(١) المعنى أنّه أهلك أكثر من نصف أولادي.

وقال عبد الله بن الأهتم يَرْثي ابنًا له:

دَعوتُك يا بُنيّ فلم تجِبْني ... فَرُدّت دَعْوتي يأسًا عليّ
بموتك ماتت اللّذات منّي ... وكانت حَيَّةً ما دُمتَ حيّا
فيما أسفًا عليك وطُولَ شَوْقي ... إليك لو أنّ ذلك رَدّ شَيّا

* * *

وأُصيب أبو العتاهية بابن له، فلما دَفنه وقَف على قبره وقال:

كَفى حَزَنًا بَدَفْنك ثم أنّي ... نَفَضْتُ تُراب قَبْرِك مِن يَدَيّا
وكانت في حياتك لي عِظاتٌ ... فأنت اليومَ أوْعظُ منك حَيّا

* * *

ومات ابنٌ لأعرابيّ فاشتد حُزْنه عليه، وكان الأعرابيّ يُكْنَى به، فقيل له: لو صَبرتَ لكان أعظمَ لثوابك؛ فقال:

بأَبي وأُمّي من عَبَأْتُ حَنُوطَه ... بيدي وفارَقني بماء شَبابِهِ
كيف السُّلوّ وكيف أَنسى ذِكْره ... وإذا دُعِيت فإنما أُدْعَى به

* * *

خرج عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه يومًا إلى بقيع الغَرْقد[1]، فإذا أَعرابيّ بين يديه، فقال: يا أَعرابيّ، ما أَدْخلك دار الحق؟ قال: وَدِيعة لي ها هنا منذُ ثلاث سنين؛ قال: وما وَديعتك؟ قال: ابنٌ لي حين تَرَعْرع فقدتُه فأنا أَنْدُبه؛ قال عمر: أَسْمِعْني ما قلتَ فيه؛ فقال:

يا غائبًا ما يؤوب من سَفَره ... عاجَله موتُه على صِغَره
يا قُرّة العَيْن كُنْتَ لي سَكَنًا ... في طُول لَيْلي نَعم وفي قِصَره

(١) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.

شَرِبْتَ كأسًا أبوكَ شارِبُها لا بُدّ يومًا له على كِبَره
أَشربُها والأنام كلّهمُ مَن كان في بَدْوِه وفي حَضَره
فالحَمْد لله لا شَريك له الموتُ في حُكمه وفي قَدَره
قد قَسّم الموتَ في الأنام فما يَقْدِر خَلْقٌ يَزِيد في عُمُره

قال عمر: صدقتَ يا أعرابي، غير أنّ الله خيرٌ لك منه.

* * *

وقالت أعرابيةٌ تَنْدُب ٱبنًا لها:

أَبُنيّ غَيَّبك المَحلُّ المُلْحَدُ إمّا بَعُدت فأين من لا يَبْعُدُ
أنت الذي في كلّ مُمْسَى لَيْلةٍ تَبْلى وحُزْنك في الحَشَى يَتجدَّدُ

وقالت فيه:

لئن كنتَ لهوًا للعيُون وقُوّةً لقد صِرْت سُقْمًا للقُلوب الصَّحائحِ
وهَوَّن حُزني أنّ يومَك مُدْرِكي وأنّي غدًا من أهل تلك الضَّرائحِ

* * *

وقال أبو الخطّار يَرْثي ابنه الخَطّار:

ألا خَبِّراني بارك الله فِيكما مَتى العَهْدُ بالخَطّار يا فَتَيانِ
فَتًى لا يَرى نَومَ العِشاء غَنِيمةً ولا يَنْثَني من صَوْلة الحَدَثان

* * *

وقال أبو الشَّغْب يَرْثي ٱبنه شَغْبًا:

قد كان شَغْبٌ لو ٱنّ الله عَمّره عِزًّا تُزاد به في عِزّها مُضَرُ
ليتَ الجِبالَ تَدَاعت قبل مَصْرَعه دَكًّا فلم يَبْقَ من أَحْجارها حَجَرُ

فارقتُ شَغْبًا وقد قُوِّسْت من كِبَرٍ   بِئْس الخليطان طولُ الحُزْن والكِبَرُ

* * *

قال الأصمعيّ عن رجل من الأعراب: كُنّا عشرةَ إخْوة، وكان لنا أَخٌ يقال له حسن، فَنُعِي إلى أبينا، فَبقي سَنَتين يَبْكي عليه حتى كُفَّ بَصَرُه، وقال فيه:

أَفلحتُ إن كان لم يَمُت حَسَنُ   وكُفّ عنّي البُكاءُ والحَزَنُ
بل أَكْذَب الله مَن نَعى حَسَنًا   ليس لتَكْذِيب قَوْله ثَمَنُ
أَجُولُ في الدار لا أَراك وفي الدَّار أُناسٌ جِوارُهم غَبَنُ
بُدِّلْتُهم منك ليتَ أنهمُ   كانُوا وبَيْني وبَيْنهم مُدُنُ
قد عَلِموا عندما أُنافرهم   ما في قَناتي صَدْع ولا أُبَنُ
قد جَرَّبوني فما أُلاَوِمُهم   ما زال بَيني وبَينهم إحَنُ
قد بُري الجسمُ مذ نُعيتَ لنا   كما برى فَرْع نَبْعة سَفَنٌ(١)
فإنْ نَعِش فالمُنى حَياتُك والـ   خُلْد وأنت الحديثُ والوَسَنُ
إن تَحْيَ نَحْيَ بخير عَيْشٍ وإن   تَمْضِ فتِلْك السَّبيلُ والسَّنَنُ
بَريدُك الحمدُ والسَّلامُ معًا   فكُلّ حَيٍّ بالموت مُرْتَهَنُ
يا وَيح نَفْسي أن كنتَ في جَدَثٍ   دونَك فيه الترابُ والكَفَنُ
عليّ لله إن لَقيتُك من   قَبْل المماتِ الصِّيامُ والبُدُنُ
أسوقُها حافيًا مُجلَّلةً   أُدْما هِجَانًا قد كَظَّها السِّمَنُ
فلا نُبالِي إذا بَقيتَ لنا   مَن مات أو مَن أَوْدى به الزَّمنُ

---

(١) السفن: ما ينحت به الشيء كالقدوم ونحوه.

كُنتَ خليلي وكنتَ خالِصتي   لِكلِّ حيٍّ من أهْلِه سَكَنُ
لا خيرَ لي في الحَياة بعدَك إذْ   أصبحتَ تحت التُّراب يا حَسنُ

* * *

وقال أعرابيّ يرثي ابنه:

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والأَسَى   أجابَ الأسى طَوْعًا ولم يُجِب الصَّبْرُ
فإن يَنْقَطع منك الرَّجاء فإنّه   سَيَبْقى عليك الحُزْن ما بَقِي الدَّهرُ

* * *

وقال أعرابيّ يرثي ابنه:

بُنَيّ لئن ضَنَّت جُفونٌ بمائها   لقد قَرِحت منّي عليك جُفُونُ
دَفنتُ بكفّي بَعْضَ نفسي فأصبحتْ   وللنفسِ منها دافِنٌ ودَفِينُ

* * *

وقال عبدُ الله بن ثَعلبة يَرْثي ولدًا له:

أَأَخضِب رَأسي أم أُطَيِّبُ مَفرِقي   ورَأْسُك مَرموسٌ وأنتَ سلِيبُ
نَسِيبُك من أمسى يُناجِيك طَرْفُه   وليس لمن تَحْت التُّراب نَسِيبُ
غَرِيبٌ وأَطْرافُ البُيوت تُكِنّه   ألاَ كلّ مَن تحت التُّراب غَرِيبُ

* * *

قال العُتْبِيّ - محمدُ بن عُبيد الله - يَرْثِي ابنًا له:

أَضْحَتْ بخدّي للدُّموع رُسُومُ   أَسَفًا عليك وفي الفؤاد كُلُومُ
والصَّبْرُ يُحمد في المَوَاطن كلِّها   إلاّ عليك فإنّه مَذْمُومُ

* * *

وقالت أعرابيَّةٌ تَرْثي ولدها:

يا قَرْحة القَلْب والأَحْشاء والكَبِدِ ... يا ليت أُمَّك لم تَحْبَل ولم تَلِدِ
لما رأيتُك قد أُدْرِجْت في كَفن ... مُطَيَّبًا للمَنايا آخرَ الأبدِ
أَيقنتُ بعدَك أنِّي غيرُ باقيةٍ ... وكيف يَبْقى ذراعٌ زال عن عَضُدِ

* * *

الفصل الثالث: في رثاء الأخ

قال الرِّياشي: صَلَّى مُتَمِّم بن نُوَيْرة الصُّبح مع أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه، ثم أنشد:

نِعْم القَتِيلُ - إذا الرِّياحُ تَنَاوَحَتْ بين البُيوت - قَتَلْتَ يا ابنَ الأَزْوَرِ[1]
أَدَعَـوْتَـه بـاللهِ ثـمَّ قَـتَـلْـتَـه لَوْ هُو دَعاكَ بِذمَّةٍ لم يَغْدِرِ
لا يُضْمِر الفَحْشاءَ تحت رِدَائه حُلْوٌ شمائلُه عَفِيفُ المِئزَرِ

قال: ثمّ بكى حتى سالت عَينُه العَوْراء. قال أبو بَكر: مَا دعوتُه ولا قتلتُه. وقال مُتَمِّم:

ومُسْتَضحِكٍ منّي أدْعَى كَمُصِيبتي وليس أخو الشَّجْو الحَزِين بضاحكِ
يَقُول أَتبكي مِن قُبُورٍ رَأَيْتَها لِقَبْرٍ بأطْرافِ المَلاَ فالدَّكادِكِ[2]
فقلتُ له إنّ الأَسَى يَبْعَث الأَسَى فَدَعْني فَهذِي كلُّها قَبْرُ مالكِ

* * *

وقال مُتَمّم يَرْثي أخاه مالكًا، وهي التي تُسمَّى أمّ المَراثي:

لَعَمْرِي وما دَهْرِي بتأْبين هالكٍ ولا جَزَعٍ ممّا أَلَمّ فَأَوْجَعا[3]

(١) ابن الأزور: ضرار بن الأزور، وهو الذي قتل مالك بن نويرة.
(٢) الدكادك: جمع دكدك. وهو من الرمل ما تكبس واستوى.
(٣) ما دهري: أي ما همي وغايتي. ولا جزع، عطف على قوله «بتأبين». يقول: ليس همي بمرثية ميت وإظهار الجزع عليه ولكني أمدح أخي وأظهر فضله. أو لعله يريد أن أخاه قد عاجله الموت وأن هذا الوقت لم يكن لرثائه.

لقد غَيَّبَ الْمِنْهَالُ تحت رِدَائه فَتًى غيرَ مِبْطَانِ العَشِيَّات أَرْوَعا(١)
ولا بَرَمًا تُهْدِي النِّسَاءُ لِعِرْسِه إذا القَشْعُ من بَرْد الشِّتاء تَقَعْقَعَا(٢)
تَراه كَنَصْلِ السَّيْفِ يهتزُّ للنَّدَى إذا لم تَجِد عند امرئ السَّوْء مَطْمَعَا
فَعَيْنَيَّ هَلاَّ تَبْكِيان لمالكٍ إذا هَزَّت الرِّيحُ الكَنِيفَ المُرفَّعَا(٣)
وأَرْمَلَة تَمْشي بأَشْعَثَ مُحْثَلٍ كَفَرْخ الْحُبارى ريشُه قد تَمَزَّعَا(٤)
وما كان وَقّافا إذا الخَيْلُ أَحْجَمت ولا طالبًا من خَشْية الْمَوت مَفْزَعَا(٥)
ولا بِكَهَامٍ سَيْفُه عَن عدوّه إذا هو لاقَى حاسرًا أو مُقَنَّعَا(٦)
أَبَى الصَّبرَ آياتٌ أَراها وأَنَّني أَرى كُلَّ حَبْلٍ بعد حَبْلِك أَقْطَعَا(٧)
وأَنّي متى ما أَدْعُ بِاسمك لم تُجِب وكُنت حَرِيًّا أن تُجِيب وتَسْمَعَا
تَحِيَّتَه مِنّي وإن كان نائيًا وأَمسى تُرابًا فوقه الأرضُ بَلْقَعَا
فإنْ تَكُنِ الأَيّام فَرَّقْن بَيْننا فَقد بان مَحْمودًا أَخِي حِينَ وَدَّعَا
فَعِشْنا بِخَيْرٍ في الحَياة وقَبْلَنا أصاب المَنايا رَهْطَ كِسْرَى وتُبَّعَا
وكُنَّا كَنَدْمَاني جَذِيمة حِقْبَةً من الدَّهر حتى قِيل لن يَتَصَدَّعَا(٨)

---

(١) المنهال: رجل من بني يربوع ألقى ثوبه على مالك أخي متمم يستره به. والمبطان: الضخم البطن. يريد أنه لا يتعجل العشاء انتظارا في العشيات للضيفان، وهي وقت مجيئهم. والأروع: الذي يعجبك بحسنه وجماله.

(٢) البرم: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر، وهو ذم. والقشع: البيت من أدم أو جلد. والتقعقع: صوت الجلد إذا يبس.

(٣) الكنيف: حظيرة من شجر تجعل للإبل تقيها البرد. والمرفع: المرفوع.

(٤) يريد «بالأشعث»: ولدها. والمحثل: السيّء الغذاء. وتمزع: تفرق.

(٥) أي ليس الجبان الذي يدفعه قومه وينحونه لأنه ليس من رجال الحرب.

(٦) الكهام: الكليل. والمقنع: الذي عليه بيضة ومغفر. والحاسر: ضده.

(٧) يقول: أبى الصبر معالم وآثارا أراها من آثارك فأذكرك إذا رأيتها فلا أقدر على الصبر. وبعد حبلك أقطعا: أي قد ذهب الوفاء.

(٨) ندمانا جذيمة: هما مالك وعقيل، نادما جذيمة الأبرش، وكانا ردا عليه ابن أخته عمرو بن عدي فسألهما حاجتهما فسألاه منادمته، فكانا نديميه ثم قتلهما.

فلـمّـا تَفَـرَّقْـنـا كـأنّـي ومـالِـكًـا   لِطُولِ ٱجتماع لم نَبِتْ ليلةً معًا
فما شارِفٌ حَنَّتْ حَنِينًا ورَجَّعَتْ   أنينًا فأبْكى شَجْوُها البَرْكَ أجمعًا[1]
ولا وَجْدُ أظْـآر ثـلاثٍ رَوَائـمٍ   رَأَيْنَ مَجَرًّا من حُوارٍ ومَصْرَعًا[2]
بأَوْجَدَ منّي يومَ قام بمالكٍ   مُنَادٍ فَصِيحٌ بالْفِراق فأَسْمَعَا
سَقى الله أرضًا حَلَّها قَبْرُ مالك   ذِهابُ الغَوَادِي المُدْجنات فأَمْرَعَا[3]

قيل لعمرو بن بَحْر الجاحظ: إنّ الأصمعيّ كان يُسَمِّي هذا الشعرَ أُمَّ المَراثي؛ فقال: لم يَسمع الأصمعيُّ:

أيُّ القلوب عليكم ليس يَنْصَدعُ   وأيّ نَوْم عليكم ليس يَمْتَنعُ

* * *

وقال الأصمعيّ: لم يَبْتَدِئ أحدٌ مَرْثِية بأحسنَ من ٱبتداء أَوْس بن حَجَر:

أيتُها النَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعا   إنّ الذي تَحْذرين قد وَقَعَا

وبعدها قولُ زُمَيل[4]:

أجارَتَنا مَن يجتمع يَتَفَرَّقِ   ومَن يَكُ رَهْنًا للحوادث يَغْلَقِ

* * *

قال ٱبن إسحاق صاحبُ المغازي: لما نزل رسولُ الله ﷺ الصَّفْراء –

(١) الشارف: المسنة من الإبل، وخصها لأنها أرق من الفتية لبعدها عن الولد. والبرك: الألف من الجمال.
(٢) الأظآر: النوق يعطفن على حوار واحد. والروائم: النوق تعطف على ولدها. والحوار: ولد الناقة.
(٣) الذهاب: جمع ذهبة وهي القطعة من السحاب. والغوادي: الغيوم التي تغدو بالمطر. والمدجنات: السحب الكثيفة السود. وأمرع: أخصب.
(٤) هو زميل بن أبرد الفزاري.

وقال ابنُ هشام: الأثيل[1] - أمَر عليّ بن أبي طالب بضَرْب عُنق النَّضر بن الحارث بن كَلَدَة بن عَلْقمة بن عبد مَناف، صَبْرًا[2] بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت أُخته قُتَيْلة[3] بنت الحارث تَرْثيه:

يا راكبًا إنّ الأُثَيل مَظِنَّة ... من صُبْح خامسةٍ وأنت مُوَفَّقُ
أبْلِغْ بها مَيْتًا بأنّ تَحِيَّةً ... ما إن تَزال بها النَّجائِبُ تَخْفِقُ[4]
منِّي إليك وعَبْرَةً مَسْفُوحَةً ... جادت بواكفها[5] وأُخرى تَخْنُقُ
هل يَسْمَعنِّي النَّضْرُ إن ناديتُه ... أم كيف يَسْمع مَيِّتٌ لا يَنْطِقُ
أمحمدٌ يا خير ضِنْء[6] كريمةٍ ... في قومها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضَرَّك لو مَنَنْتَ وربما ... مَنَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ
فالنَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ أَسَرْتَ قَرَابَةً ... وأحقُّهم إن كان عِتْقٌ يُعْتِقُ
ظَلَّت سُيوف بني أبيه تَنُوشه[7] ... لله أرحام هُناك تَشَقَّقُ
صَبْرًا يُقاد إلى المنيَّة مُتْعَبًا ... رَسْفَ المُقَيَّد وهو عانٍ مُوثَق[8]

قال ابن هشام: قال النبيُّ ﷺ لما بلغه هذا الشِّعر: لو بلغني قبلَ قَتْله ما قتلتُه.

* * *

(١) الأثيل: موضع قرب المدينة بين بدر ووادي الصفراء.
(٢) يقال للرجل يقدم فيضرب عنقه: قتل صبرًا، يعني أنه أمسك على الموت، وكذلك كل مقتول في غير معركة ولا حرب ولا خطأ فإنه مقتول صبرا.
(٣) وقتيلة: هي بنت النضر لا أخته.
(٤) النجائب: الإبل الكريمة. وتخفق: تسرع.
(٥) الواكف: السائل.
(٦) الضنء: النسل.
(٧) تنوشه: تتناوبه.
(٨) رسف المقيد: مشيه. والعاني: الأسير.

قال الأصمعيُّ: نَظر عمرُ بن الخطَّاب إلى الخَنساء وبها نُدوب في وَجْهها، فقال: ما هذه النُّدوب يا خَنساء؟ قالت: من طُول البُكاء على أخَوَيّ؛ قال لها: أخَواكِ في النار؛ قالت: ذلك أطْول لِحُزني عليهما، إني كنتُ أُشفِق عليهما من النار، وأنا اليوم أبْكي لهما من النار، وأنشدتْ:

وقائلةٍ والنَّعشُ قد فات خَطْوَها لِتُدْرِكه: يا لَهْفَ نفسي عَلَى صَخْرِ

ألا ثَكِلت أُمُّ الذين غَدَوْا به إلى القَبْرِ ماذا يَحْمِلُون إلى القبرِ

* * *

دخلت خَنْساءُ على عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها وعليها صِدَار من شَعَر قد استشعرته إلى جِلْدِها، فقالت لها: ما هذا يا خَنساء؟ فوالله لقد تُوفي رسولُ الله ﷺ فما لَبِسْتُه؛ قالت: إنّ له مَعْنى دَعاني إلى لِباسه، وذلك أنّ أبي زَوَّجني سيّد قومه، وكان رجلاً مِتْلافًا فأسْرف في ماله حتى أنْفده، ثم رَجع في مالِي فأنْفده أيضًا، ثم التفت إليّ فقال: إلى أين يا خَنْساء؟ قلتُ: إلى أخي صَخر. قالت: فأتيناه فَقَسَّم، مالَه شَطْرَين، ثم خَيَّرنا في أحْسن الشَّطْرين، فَرَجَعْنا من عنده، فلم يَزَل زَوْجي حتى أذْهَبَ جَمِيعَه. ثم التفت إليّ، فقال لي: إلى أين يا خَنساء؟ قلت: إلى أخي صَخْر. قالت: فَرَحَلْنا إليه، ثم قَسَّم ماله شَطْرين، وخَيَّرنا في أفضل الشَّطْرين. فقالت له زوجتُه: أما تَرْضى أن تُشاطِرَهم مالك حتى تُخَيِّرهم بين الشَّطرين؟ فقال:

والله لا أمْنَحها شِرَارَها فلو هَلَكْت قَدَّدَتْ خِمَارَها

واتَّخذَتْ من شَعَرٍ صِدَارَها وهي حَصَانٌ قد كَفَتْني عارَها

* * *

وقالت الْخنساء تَرْثِي أخاها صَخْر بن الشَّريد:

قَذًى بعَيْنِك أمْ بالْعَيْن عُوَّارُ أم أقْفرَتْ إذ خَلَتْ من أهْلها الدَّارُ

كأنَّ عَيْني لِذكْراه إذا خَطَرتْ فَيْضٌ يَسِيلُ على الخَدَّين مِدْرارُ
فالعَيْنُ تَبكِي على صَخْرٍ وحُقَّ لها ودُونه من جَديد الأَرْض أسْتارُ
بُكاءَ والِهةٍ ضَلَّت أَلِيفَتها لها حَنِينانِ إصْغَارٌ وإكبارُ(١)
تَرْعَى إذا نَسِيتْ حتى إذا ذَكَرَت فإنما هي إقبالٌ وإدْبارُ
وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمّ الهُداةُ به كأنَّه عَلَمٌ في رَأسه نارُ
حامَي الحَقِيقةِ مُحْمُودُ الخَلِيقةِ مَهْ دِيُّ الطَّرِيقةِ نَفَّاعٌ وضَرَّارُ

* * *

وقالت أيضًا:

أَعينيّ جُودَا ولا تَجْمُدَا ألاَ تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى
ألاَ تَبْكيان الجَرِيءَ الجَوَادَ ألاَ تَبْكِيانِ الفَتَى السَّيِّدَا
طويلَ النِّجاد رَفيعَ العِمَا د سادَ عَشِيرتَه أَمْرَدَا
يُحَمِّله القومُ ما غالَهم وإنْ كان أَصغرَهم مَوْلِدَا
جَمُوعُ الضُّيوفِ إلى بابه يَرى أفضلَ الكَسْب أن يُحْمدَا

* * *

وقالت أخت الوليد بن طَرِيف ترثي أخاها الوليد بن طَرِيف:

أيَا شجرَ الخابُور ما لكَ مُورِقًا كأنّك لم تَجْزَع على ابن طَرِيفِ
فَتَى لا يُرِيدُ العِزّ إلاّ من التُّقى ولا المالَ إلا مِن قَنًا وسُيُوفِ
ولا الذُّخْر إلا كُلّ جرداء صِلْدِمٍ(٢) وكلَّ رقيق الشَّفْرتين حليفِ

(١) إصغارها: حنينها إذا خفضته. وإكبارها: حنينها إذا رفعته.
(٢) الجرداء: القصيرة الشعر. والصلدم: الشديدة الحافر.

فَقدْناه فِقدانَ الرَّبيع فليتَنا فَدَيْنَاه من ساداتنا بألُوفِ
خَفِيفٌ على ظَهْر الجَواد إذا غَدا وليس على أَعْدائه بِخَفيفِ
عليك سلامُ الله وَقْفًا فإنّني أَرَى الموتَ وَقَّاعًا بكلِّ شَرِيفِ

* * *

وقال آخر يَرْثي أخاه:

أَخٌ طالما سرّني ذِكْرُه فقد صِرْتُ أَشْجَى إلى ذِكْرِهِ
وقد كُنتُ أَغْدُو إلى قَصْرِهِ فقد صِرْتُ أَغْدُو إلى قَبْرِهِ
وكنت أراني غَنِيًّا به عن الناس لو مُدَّ في عُمرِهِ
وكنت إذا جِئْتُه زائرًا فأَمْرِي يَجُوز على أَمْرِهِ

* * *

وقال كعب يرثي أخاه أبا المِغْوار[1]:

تقول سُلَيْمى ما لِجِسْمك شاحبًا كأنّك يَحْمِيكَ الطَّعامَ طَبِيبُ
فقُلتُ شُجُونٌ من خُطُوبٍ تَتابعت عليّ كِبارٌ والزَّمانُ يَرِيبُ
لَعَمْرِي لئنْ كانت أصابتْ مَنِيَّةٌ أخِي فالمَنايَا للرِّجال شَعوبُ[2]
فإنّي لَبَاكِيه وإنّي لصادِقٌ عليه وبعضُ القائلين كَذُوبُ
أخِي ما أخِي لا فاحشٌ عند بَيْتِه ولا وَرِعٌ عند اللِّقاء هَيُوبُ
أَخٌ كان يَكْفِيني وكان يُعِينني على نائباتِ الدَّهْر حين تَنُوبُ
هو العَسَلُ الماذِيُّ لِينًا وشِيمةً وليثٌ إذا لاقى الرجالَ قَطُوبُ[3]

(١) اسم أبي المغوار على الأصح هرم؛ وقيل شبيب.
(٢) شعوب: أي مفرقة.
(٣) الماذي: الأبيض، وهو أجود العسل. وقطوب: عابس.

هَوَتْ أُمُّه[1] ما يَبْعَثُ الصُّبحُ غادِيًا وماذا يَرُدّ الليلُ حين يَؤُوبُ
كعاليةِ الرُّمْح الرُّدَيْنِي لم يَكُن إذا ابتدر الخيلَ الرجالُ يَخِيبُ
وَدَاعٍ دَعَا يا مَن يُجيب إلى النَّدا فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجِيبُ
فقلت ادعُ أخرى وارفعِ الصوت ثانيًا لعلّ أبا المغْوَار منك قَرِيبُ
يُجِبْك كما قد كَان يَفْعَل إنّه بأمْثالها رَحْبُ الذّراعِ أريبُ
وحَدّثتُماني أنّما المَوْتُ بالقُرى فكيفَ وهاتي هَضْبةٌ وكثِيبُ
فلو كانت المَوْتى تُباع اشتريتُه بما لم تَكُن عنه النُّفوسُ تَطيبُ
بِعَيْنِيَ أو يُمْنى يَدَيّ وخِلْتُني أنا الغائمُ الجَذْلاَنُ حين يؤوبُ
لقد أفسد الموتُ الحياةَ وقد أتى على يَوْمِه عِلْقٌ[2] إليّ حَبيبُ
أتى دُون حُلْو العَيْش حتى أمَرّه قُطُوبٌ على آثارهنَّ نُكُوبُ[3]
فوالله لا أنساه ما ذَرّ شارِقٌ وما اهتزّ في فَرْع الأراك قَضِيبُ[4]
فإنْ تكُن الأيّامُ أَحْسَنّ مَرّةً إليّ لقد عادَتْ لَهُن ذُنُوبُ

* * *

(١) هوت أمه: دعاء عليه، ومعناه التعجب. ويريد هنا استعظام الحزن عليه.
(٢) العِلْق: النفيس.
(٣) نكوب: مصائب.
(٤) ذرّ شارق: أشرقت شمس. الأراك: نوع من الشجر.

الفصل الرابع: في رثاء الزوجة

جرير يرثي زوجته

هو أبو حرزة جرير بن عطيّة (٣٣ هـ/ ٦٥٣ م- ١١٤ هـ/ ٧٣٣م) اشتهر بالهجاء، وراح يرمي به الخصوم قويًّا شديد اللهجة، فذاع صيته، وردّدت اسمه الركبان. نشبت بينه وبين الفرزدق حرب هجائيّة دامت خمسين سنة، كان الشاعر منهما ينظم القصيدة ويبعث بها إلى خصمه، فينقض الخصم ما قيل فيها بقصيدة ينظمها على الوزن نفسه، والقافية نفسها. وسمِّيت تلك القصائد «النقائض».

له ديوان شعريّ في المدح، والرثاء، والغزل، والهجاء. ورثاء جرير سواء أكان في ذويه أم في غيرهم، هو رثاء من يشعر بالمصيبة شعورًا عميقًا، فينهدّ لها كيانه، ثم يطلق اللسان فيما يفيض من القلب، وإذا اللسان ترجمان النفس، والألفاظ أنفاس حارّة، وإذا الشعر يسيل سيلان الدموع المنهمرة، في انسجام، وسهولة، ورقّة؛ وإذا أمامك مشهد مؤلم، هو مشهد تتراءى فيه ذكريات الرجل أحبّةً وصفاتٍ محبّبة إلى كل نفس، وأعمالًا غرّاء؛ وإذا الشاعر ينطلق بين المناجاة، والنداء، ومخاطبة الميت، والأخبار، رائع الأسلوب، عجيب السلاسة؛ وإذا الزفرات المتصاعدة أدعية واستلفاتًا تقف بين المقطع والمقطع، وبين الفكرة والفكرة، شرارات تعصر القلوب وتستقطر الجفون.

ومن قصيدة طويلة وجّهها إلى خصمه الفرزدق هاجيًا، افتتحها برثاء

امرأته، فقال:

لَوْلاَ ٱلْحَيَاءُ، لَعَادَنِي ٱسْتِعْبَارُ، وَلَزُرْتُ بَيْتَكِ، وَٱلْحَبِيبُ يُزَارُ(١)
وَلَقَدْ نَظَرْتُ، وَمَا تَمَتُّعُ نَظْرَةٍ فِي ٱللَّحْدِ حَيْثُ تَمَكَّنَ ٱلْمِحْفَارُ(٢)
وَلَهْتِ قَلْبِي، إِذْ عَلَتْنِي كَبْرَةٌ، وَذَوُو ٱلتَّمَائِمِ مِنْ بَنِيكِ صِغَارُ(٣)
أَرْعَى ٱلنُّجُومَ، وَقَدْ مَضَتْ غُورِيَّةٌ، عُصَبُ ٱلنُّجُومِ كَأَنَّهُنَّ صُوارُ(٤)
نِعْمَ ٱلْقَرِينُ، وَكُنْتِ عِلْقَ مَضَنَّةٍ وَأَرَى بِنَعْفِ بُلَيَّةَ ٱلأَحْجَارُ(٥)
عَمَرَتْ مُكَرَّمَةَ ٱلْمَسَاكِ وَفَارَقَتْ مَا مَسَّهَا صَلَفٌ وَلاَ إِقْتَارُ(٦)
فَسَقَى صَدَى جَدَثٍ، بِبُرْقَةِ ضَاحِكٍ هَزِمٌ أَجَشُّ، وَدِيمَةٌ مِدْرَارُ(٧)
هزِمٌ أَجَشُّ، إِذَا ٱسْتَحَارَ بِبَلْدَةٍ فَكَأَنَّمَا بِجِوَائِهَا ٱلأَنْهَارُ(٨)
مُتَرَاكِمٌ زَجِلٌ يُضِيءُ وَمِيضُهُ كَٱلْبُلْقِ تَحْتَ بُطُونِهَا ٱلأَمْهَارُ(٩)
كَانَتْ مُكَرَّمَةَ ٱلْعَشِيرِ وَلَمْ يَكُنْ يَخْشَى غَوَائِلَ أُمِّ حَزْرَةَ جَارُ(١٠)
وَلَقَدْ أَرَاكِ كُسِيتِ أَجْمَلَ مَنْظَرٍ وَمَعَ ٱلْجَمَالِ سَكِينَةٌ وَوَقَارُ

---

(١) استعبار: بكاء. بيتك: قبرك.
(٢) المحفار: آلة الحفر.
(٣) ولهة: حزينة أشدّ الحزن. التمائم: ج تميمة وهي خرزة أو عوذة تُعلّق في عنق الولد دفعًا للأخطار.
(٤) الغورية: التي تأخذ الغور للغروب والسقوط: العصب: الجماعات. الصوار: قطيع بقر الوحش.
(٥) العلق: النفيس من كل شيء. المضنة: ما يضن به. النعف: أسفل الجبل وأعلى الوادي. بلية: اسم موضع.
(٦) المساك: اسم الإمساك. الصلف: بغض من الزوج. الإقتار: العسر.
(٧) الصدى: كان العرب يعتقدون بأنه يخرج من رأس القتيل طير يسمونه «صدى» يظل عطشان يصيح «اسقوني» حتى يؤخذ بثأره. الهزم: السحاب الراعد. الأجش: الغليظ الصوت من الرعد. برقة ضاحك: اسم موضع.
(٨) الجواء: ج جو وهو الناحية والجهة.
(٩) زجل: ذو جلبة، البلق ج أبلق وهو ما كان في لونه سواد وبياض.
(١٠) الغوائل: المصائب.

وَٱلرِّيحُ طَيِّبَةٌ إِذَا ٱسْتَقْبَلْتِهَا ... وَٱلْعِرْضُ لاَ دَنِسٌ وَلاَ خَوَّارُ[1]

وَإِذَا سَرَيْتُ رَأَيْتُ نَارَكِ نَوَّرَتْ ... وَجْهًا أَغَرَّ، يَزِينُهُ ٱلإِسْفَارُ

صَلَّى ٱلْمَلاَئِكَةُ ٱلَّذِينَ تُخُيِّرُوا ... وَٱلصَّالِحُونَ عَلَيْكِ، وَٱلأَبْرَارُ

وَعَلَيْكِ مِنْ صَلَوَاتِ رَبِّكَ كُلَّمَا ... نَصِبَ ٱلْحَجِيجُ مُلَبِّدِينَ، وَغَارُوا[2]

يَا نَظْرَةً لَكِ، يَوْمَ هَاجَتْ عَبْرَةً ... مِنْ أُمِّ حَرْزَةَ، بِٱلنُّمَيْرَةِ دَارُ

تُحْيِي ٱلرَّوَامِسُ رَبْعَهَا، فَتُجِدُّهُ ... بَعْدَ ٱلْبِلَى، وَتُمِيتُهُ ٱلأَمْطَارُ[3]

وَكَأَنَّ مَنْزِلَةً لَهَا، بِجُلاَجِلٍ ... وَحْيُ ٱلزَّبُورِ تُجِدُّهُ ٱلأَحْبَارُ[4]

لاَ تُكْثِرَنَّ، إِذَا جَعَلْتَ تَلُومُنِي ... لاَ يَذْهَبَنَّ بِحِلْمِكَ ٱلإِكْثَارُ

كَانَ ٱلْخَلِيطُ هُمُ ٱلْخَلِيطُ، فَأَصْبَحُوا ... مُتَبَدِّلِينَ، وَبِٱلدِّيَارِ دِيَارُ

لاَ يَلْبَثُ ٱلْقُرَنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا ... لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمِ وَنَهَارُ!

* * *

---

(١) الخوار: الضعيف.

(٢) نصب: تعب. الحجيج ج حاج. ملبدين: مقيمين. غار الرجل: نام.

(٣) الرومس: الرياح.

(٤) الزبور: المزامير. تجده: تكتبه فتحكمه.

ديك الجنّ يرثي زوجته

هو عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي (١٦١هـ/ ٧٧٨م - ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م) المعروف بديك الجنّ، شاعر مجيد فيه مجون، من شعراء العصر العبّاسيّ. سمّي بديك الجنّ لأنّ عينيه كانتا خضروايْن. أصله من سلمية (قرب حماة)، ومولده ووفاته بحمص في سورية. لم يفارق بلاد الشام. ولم ينتجع بشعره. له «ديوان شعر»[1].

ولديك الجنّ قصّة طريفة مع زوجته، ورد ملخّصها أنّه أحبّ فتاة نصرانيّة تدعى ورد، فتزوّجها بعدما اعتنقت الإسلام، وعاشا معًا حياةً هانئة سعيدة. وعندما ساءت حال ديك الجنّ المادّيّة، قصد صديقه أحمد بن علي الهاشميّ في سلمية، وأقام عنده مدّة. وفي أثناء ذلك لفّق ابن عمّه أبو الطيب خبر علاقة ورد بأحد غلمان الشاعر المدعو بكر، وكان أبو الطيّب يبغض الشاعر لهجائه له.

شاع خبر علاقة ورد ببكر، حتى وصل إلى مسامع ديك الجنّ الذي استأذن صديقه أحمد في العودة إلى حمص، وكان أن نجحت المؤامرة، فقتل ديك الجنّ زوجته ورد وعشيقها المزعوم بكر. وبعد مدّة عرف الحقيقة، فندم ندمًا كبيرًا على فعلته وراح يبكي زوجته طوال حياته. ومما قال فيها بعد موتها نقتطف ما يلي: [من الطويل]

وآنسةٍ عذب الثنايا وجدتُها   على خطّةٍ فيها لذي اللبّ متلفُ

(١) الزركلي: الأعلام ٤/ ٥.

فأصلتُّ حدَّ السيفِ في حرّ وجهها وقلبي عليها من جوى الوجدِ يرجفُ
فخرَّتْ كما خرَّتْ مهاةٌ أصابَها أخو قنصٍ مستعجلٌ متعسِّفُ
سيقتلني حزنًا عليها تأسُّفي وهيهات ما يُجدي عليّ التأسُّفُ

* * *

يا طلعةً طلع الحِمامُ(١) عليها وجنى لها تمر الرّدى بيديها
روَّيتُ من دمها الثّرى ولطالما روَّى الهوى شفتيَّ من شفتيها
قد باتَ سيفي في مجالِ وشاحِها ومدامعي تجري على خَدَّيها
فوَحقِّ نَعْليها وما وطئ الحَصَى شيءٌ أعزُّ عليّ منْ نعليها
ما كان قتليها لأنّي لم أكنْ أبكي إذا سقط الغبارُ عليها
لكنْ ضننْتُ على العيونِ بحُسْنِها وأنفتُ من نظرِ الحسودِ إليها

* * *

(١) الحِمام والرَّدى: الموت.

نزار قبّاني يرثي زوجته

شاعر من كبار الشعراء العرب المعاصرين، فلسطيني الأصل، سوريّ المولد والجنسيّة، لبنانيّ الإقامة والهوى. ولد في دمشق في السنة ١٩٣٢م/١٣٤٢هـ، وتخرّج في الجامعة السوريّة بإجازة في الحقوق، وخدم وطنه في السلك الدبلوماسيّ ما بين ١٩٤٥م، والسنة ١٩٦٦م. يُعتبر من كبار المجدِّدين في الأدب العربيّ المعاصر. لقِّب بـ«شاعر المرأة»، واشْتُهِر بالغزل، لا بالرِّثاء، ولكن له قصيدة طويلة قالها في رثاء زوجته العراقية بلقيس عندما قُتلت بانفجار في بيروت، وهي تدلّ على أنّ عبقريّة الشاعر لا تقتصر على ضرب من ضروب الفنّ الغنائيّ، فالمُبدِع المُجيد يُبدع ويُجيد في أيّ فَنّ غنائيّ عزف على أوتاره. وفيما يلي بعض المقاطع من هذه القصيدة:

* * *

شُكْرًا لَكُمْ...

شُكْرًا لَكُمْ

فَحَبِيبَتِي قُتِلَتْ، وصار بِوُسْعِكُمْ

أنْ تَشْرَبُوا كَأْسًا على قَبْرِ الشَّهِيدهْ

وَقَصيدَتي اغْتِيلَتْ...

وِهَلْ مِنْ أُمَّةٍ في الأرْضِ

إلّا نَحْنُ نَغْتَالُ القَصِيدَه

* * *

بَلْقِيسُ...

كانَتْ أَجْمَلَ المَلِكَاتِ فِي تاريخِ بابِلْ

بَلْقِيسُ...

كانَتْ أَطْوَلَ النَّخْلاَتِ في أَرْضِ العِراقْ

كانَتْ إِذَا تَمْشِي

تُرَافِقُهَا طَوَاوِيسُ...

وتَتْبَعُها أَيائِلْ...

بَلْقِيسُ... يا وَجَعِي..

ويا وَجَعَ القَصِيدَةِ تَلْمَسُها الأَنَامِلْ

هَلْ يا تُرَى...

مِنْ بَعْدِ شَعْرِكِ سَوفَ تَرْتَفِعُ السَّنابِلْ؟؟

* * *

يا نينَوى الخَضْراء

يا غَجَرِيَّتي الشَّقْراء

يا أمْوَاجَ دِجْلَةَ

تَلْبَسُ في الرَّبِيعِ بِساقِها

أحْلَى الخَلاخِلْ

* * *

بَلْقِيسُ

لا تَتَغَيَّبِي عَنِّي

فَإنَّ الشَّمْسَ بَعْدكِ

لا تُضِيءُ على السَّواحِلِ

* * *

بَلْقِيسُ!

أَيَّتُهَا الشَّهِيدَةُ.. والقَصيدَةُ

والمُطَهَّرَةُ النَّقِيَّه..

سَبَأٌ تُفَتِّشُ عَنْ مَلِيكَتِها

فَرُدِّي للجماهيرِ التَّحِيَّهْ

* * *

الموتُ في فُنْجَانِ قَهْوَتِنا..

وفي مِفْتاحِ شِقَّتِنا..

وفي أزْهارِ شُرْفَتِنَا..

وفي وَرَقِ الجَرائد..

والحروفِ الأبْجَدِيَّة..

* * *

بَلْقِيسُ...

يا عِطْرًا بِذاكِرتي

ويا قَبْرًا يُسَامِرُ في الغَمامْ

قَتَلُوكِ، في بيروت، مِثْل أيِّ غَزالَةٍ

مِنْ بَعْدِها.. قَتَلوا الكلامْ

* * *

بَلْقِيسُ

مشْتاقون.. مُشْتاقون.. مُشْتاقون..

والبيتُ الصَّغِيرُ..

يُسائِلُ عَنْ أَمِيرَتِهِ المُعَطَّرَةِ الذُّيولْ

نُصْغي إلى الأَخْبَارِ.. الأَخْبارُ غامِضَةٌ

ولا تَرْوي فُضُولْ

* * *

بَلْقِيسُ...

مُذْبَحونَ حَتَّى العَظْمِ

والأَوْلادُ لا يَدْرونَ ما يَجْرِي

ولا أَدْرِي أنا ماذا أَقولْ

* * *

هل تَقْرعين البابَ بَعْدَ دَقائِقٍ

هل تَخْلَعِينَ المعطَفَ الشَّتَوِيَّ

هَلْ تَأْتِين باسِمَةً...

ونَاضِرَةً...

وَمُشْرِقَةً كَأَزْهَارِ الحُقُولْ

* * *

بَلْقِيسُ...

إنَّ زُروعَكِ الخَضْراءَ

ما زالتْ على الحيطانِ باكِيةً

وَوَجْهَكِ لَمْ يَزَلْ مُتَنَقِّلاً

بينَ المرايا والسَّتائِرْ

حَتَّى سجارتُكِ التي أَشْعَلْتِها

لَمْ تَنْطَفِىءْ

ودُخانُها

ما زال يَرْفُضُ أنْ يُسافِر

* * *

بَلْقِيسُ...

مَطْعُونونَ مَطْعُونون في الأَعمَاقِ

والأَحْداقُ يَسْكُنُها الذُّهولْ

بَلْقِيسُ..

كيفَ أَخَذْتِ أَيامِي وَأَحْلامي

وَأَلْغَيْتِ الحدائِقَ والفُصولْ؟!!

* * *

يا زوجَتي...

وحبيبَتي.. وقصيدتي.. وضياءَ عَيْني

قَدْ كُنتِ عُصْفوري الجميلَ

فكيفَ هَرَبْتِ يا بلقيسُ مِنِّي؟

* * *

بَلْقِيسُ...

هذا موعِدُ الشّاي العِراقيِّ المُعَطَّرِ

والمُعَتَّقِ كالسُّلافهْ

فَمَنِ الذي سَيُوزِّعُ الأَقْدَاحَ أَيَّتُها الزّرافَهْ

وَمَنِ الذي نَقَلَ الفُراتَ لبَيْتِنا

وورودَ دِجْلَةَ والرّصافَهْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .

يا بَلْقِيسُ . . .

يا بَلْقَيسُ . . .

كُلُّ غَمَامَةٍ تَبْكِي عَلَيْكِ

فَمَنْ تُرَى يَبْكِي عَلَيَّ

بَلْقِيسُ . . . كيفَ رَحَلْتِ صامِتَةً

ولَمْ تَضَعِي يَدَيْكِ على يَدَيّا؟

* * *

بَلْقِيسُ . . .

أَسْأَلُكِ السَّمَاحَ، فَرُبّما

كانَتْ حَيَاتُكِ فِدْيَةً لِحَياتِي

إِنّي لأَعْرِفُ جَيِّدًا

أَنَّ الذينَ تَوَرَّطُوا في القَتْلِ كانَ مُرادُهُمْ

أَنْ يَقْتُلوا كَلِماتِي .

نامي بِحِفْظِ الله، أيَّتُها الجميلَهْ

فالشِّعْرُ بَعْدَكِ مُسْتَحِيلْ

والأُنوثَةُ مُسْتَحِيلَهْ

سَتَظَلُّ أجْيالٌ مِنَ الأَطفالِ

تَسْأَلُ عَنْ ضَفَائِرِكِ الطَّويلَهْ

وَتَظَلُّ أَجْيالٌ مِنَ العُشَّاقِ

تَقْرَأُ عَنْكِ أَيَّتُها المعَلِّمَةُ الأَصيلَهْ...

* * *

الفصل الـخامس: في رثاء الزوج

لبانة بنت علي بن ريطة ترثـي زوجها

هي شاعرة من شواعر العرب في العصر العباسيّ، كانت من أجمل نساء عصرها، تزوّجها محمد بن هارون الرشيد، لكنّه سرعان ما قُتل عنها، ولم يبنِ بها، فقالت ترثيه:

أبكيكَ لا للنّعيمِ والأُنُسِ ... بل للمعالي والرّمحِ والفرسِ
يا فارسًا بالعراءِ مطّرحًا ... خانته قوّاده مع الحرسِ
أبكي على سيِّدٍ فُجعتُ بهِ ... أَرْملني قبل ليلةِ العُرسِ
أَمْ مَنْ لبِرٍّ أَمْ مَنْ لعائدةٍ ... أمْ مَنْ لذكرِ الإلهِ في الغَلسِ
مَنْ للحروبِ التي تكونُ لها ... إنْ أُضْرِمَتْ نارُها بلا قبسِ(١)

* * *

أعرابيّة ترثـي زوجَها

قالت أعرابيّة ترثي زوجها(٢):

كنّا كَغصنين في جرثومةٍ(٣) سَمَوا ... حينًا بأحسنِ ما تسمو له الشَّجَرُ

(١) العقد الفريد ٣/ ٢٧٧.
(٢) عن العقد الفريد ٣/ ٢٧٧؛ وفي عيون الأخبار ٣/ ٧٥ أنّ الأبيات لصفيّة الباهليّة ترثي أخاها.
(٣) الجرثومة: الأصل.

حتّى إذا قيل قد طالتْ فروعُهما وطابَ قنواهُما[1] واستُنظر الثّمرُ
أَخْنى على واحدٍ ريبُ الزمانِ وما يُبقي الزّمانُ على شيءٍ ولا يَذَرُ[2]
كنّا كأنْجمِ ليلٍ بيْنَها قَمرٌ يجلو الدُّجى فهَوَى من بينها القمرُ

* * *

(١) القنو: العذق، وهو من النّخل كالعنقود من العنب.

(٢) أخنى عليه الزمان: أهلكه. ريب الزمان: مصائبه. يذر: يترك.

الباب السابع

في التعازي[1]

(١) أخذنا هذا الملحق من كتاب «العقد الفريد».

قال عبد الرحمن بن أبي بكر لسليمان بن عبد الملك يُعزِّيه في ابنه أيوب وكان وليّ عهده وأكبر ولده: يا أمير المؤمنين، إنه من طال عمره فَقَدَ أحبّته، ومن قَصُر عُمره كانت مُصيبته في نفسه. فلو لم يكن في مِيزانك لكُنْتَ في ميزانه.

* * *

وكَتَب الحسنُ بن أبي الحسن إلى عُمَر بن عبد العزيزُ يُعزِّيه في ٱبنه عبد الملك:

وعُوِّضْتَ أَجْرًا مِنْ فَقِيدٍ فَلَا يَكُنْ   فَقِيدُكَ لا يَأتي وأَجْرك يَذْهَبُ

* * *

قال العُتْبي: قال عبدُالله بن الأهْتَم: مات لي ٱبن وأنا بمكة فجزِعْتُ عليه جَزَعًا شديدًا، فَدَخَل عليَّ ٱبنُ جُرَيج يُعَزِّيني، فقال لي: يا أبا محمد، ٱسْلُ صَبرًا وٱحْتِسابًا قَبْلَ أن تَسْلُو غفلة ونِسْيانًا كما تَسْلو البهائم. وهذا الكلامُ لعليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهَه يُعزِّي به الأشْعَثَ بن قيس في ٱبن له، ومنه أخذه ابن جُرَيج. وقد ذَكَرَه حبيب في شعره فقال:

وقال عليٌّ في التعازي لأشْعَثٍ   وخاف عليه بعضَ تلك المآثِم

أتَصْبِرُ لِلْبلْوَى عَزَاءً وحِسْبَةً   فَتُؤْجَرَ أَمْ تَسْلُو سُلُوَّ البهائم

* * *

أتى عليٌّ بنُ أبي طالب كَرَّم الله وجهه لأَشْعَث يُعَزِّيه عن ٱبنه، فقال: إن تَحْزَنْ فقد ٱستحقَّتْ ذلك مِنك الرّحم، وإن تَصْبر فإنّ في الله خَلَفًا من كلِّ هالك، مع أنّك إنْ صَبَرت جرَى عليك القَدَر وأنت مَأجُور، وإن جَزِعْت جَرَى عليك القَدَر وأنت آثِم.

* * *

وعزَّى ٱبنُ السَّماك رجلاً فقال: عليك بالصَّبْر، فيه يَعْمل من ٱحتَسَب، وإليه يَصير مَن جزِع، واعلم أنه ليست مُصيبة إلا ومعها أعظمُ منها من طاعة الله فيها أو مَعْصيته بها.

* * *

قال الأصمعيّ: عزّى صالحٌ المُرِّي رجلاً بٱبنه، فقال له: إنْ كانت مُصيبتك لم تُحْدِث لك مَوْعظةً فمُصِيبتك بنَفْسك أعظمُ من مُصيبتك بٱبنك، وٱعلم أنّ التَّهْنِئَة على آجِل الثَّوَاب أولَى من التَّعزِية على عاجل المصيبة.

* * *

قال العُتْبيّ: عزَّى أبي رجلاً فقال: إنما يسْتوجب على الله وَعْدَه مَنْ صَبَر لحقِّه، فلا تَجْمَع إلى ما فُجِعت به الفَجيعةَ بالأَجر، فإنها أعظمُ المصيبتين عليك، ولكلّ ٱجتماعٍ فُرْقة إلى دار الحُلول.

* * *

عزّى عبدُالله بن عبَّاس عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه في بُنَي له صَغير، فقال: عوَّضك الله منه ما عوّضه الله منك.

* * *

وكان عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه إذا عزَّى قومًا قال: عليكم بالصَّبر، فإنّ به يأخُذ الحازم وإليه يَرْجع الجازع.

وكان الحسنُ يقول في المُصيبة: الحمدُ لله الذي آجَرَنا على ما لو كلَّفنا غيرَه لعَجَزْنا عنه.

* * *

كتاب تعزية

أما بعد، فإنَّ أحقّ مَن تعزَّى، وأوْلى مَنْ تأسَّى وسَلَّم لأمر الله، وقَبِلَ تأديبَه في الصَّبْر على نَكَبَات الدُّنيا، وتجرُّع غُصَص البَلْوى، مَن تنَجَّز من الله وعدَه، وفَهِم عن كتابه أمرَه، وأَخْلَص له نفسَه، واعترف له بما هو أهلُه. وفي كتاب الله سَلوَة من فَقْدِ كلِّ حَبيب وإن لم تَطب النفسُ عنه، وأُنسٌ من كلِّ فقيد وإن عَظُمت اللوعةُ به، إذ يقول عزَّ وجلّ: ﴿كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ الّا وَجْهَه لَهُ الحُكمُ وَإلَيهِ تُرْجَعُون﴾[1] وحيث يقول: ﴿الّذِين إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إنَّا للهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُون * أُولٰئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأُولٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُون﴾[2]. الموتُ سبيل الماضِين والغابرين، ومَوْرِد الخَلائق أَجْمعين، وفي أَنبياء الله وسالفِ أوليائه أفضلُ العِبْرة، وأحسن الأسوة، فهل أحدٌ منهم إلّا وقد أخذ من فجائع الدُّنيا بأَجْزل العطاء، ومن الصبر عليها باَحتساب الأجْر فيها بأَوْفر الأنصِبَاء؛ فُجع نبيّنا عليه الصلاةُ والسلام بأبنه إبراهيم، وكان ذخْرَ الإيمان، وقُرَّة عَيْن الإسلام، وعَقِب الطَّهارة، وسَلِيل الوحي، ونَتِيج الرَّحمة، وحَضِين الملائِكة، وبقِيَّة آل إبراهيم وإسماعيل صلوات الله عليهم أجمعين وعلى عامة الأنبياء والمُرْسلين، فعمَّت الثُقْلَين مُصِيبتُه، وخَصَّت الملائكةَ رَزِيَّتُه، ورضي ﷺ من فراقه بثواب الله بدلًا، ومن فِقْدَانه عِوَضًا، فشكَرَ قَضَاه، واَتبع رِضَاه، فقال: يَحْزَن القَلب وتَدْمَع العين، ولا نَقول ما يُسْخِط الربّ، وإنّا بك يا إبراهيم لَمَحْزونون. وإذا تأمَّل ذو النَّظَر ما هو مُشْفِ عليه من غِيَر الدُّنيا، واَنْتَصَح نفسه وفِكْرَه في غِيرَها بتنقُّل الأحوال،

(١) القصص: ٨٨

(٢) البقرة: ١٥٦ و ١٥٧

وتقارُبِ الآجال، وانقطاع يسير هذه المُدَّة، ذَلَّت الدُّنيا عنده، وهانت المصائبُ عليه، وتَسهَّلت الفجائعُ لديه، فأخَذ للأمر أُهْبته، وأعدَّ للموت عُدَّته. ومن صَحِب الدُّنيا بحُسْن رَوِيَّة، ولاحَظَها بعين الحقيقة، كان على بَصِيرة من وَشْكِ زوالها. قال النبيُّ ﷺ: اذكُرُوا الموت فإنه هادم اللذات، ومُنَغِّصُ الشَّهَوَات. وليس شيء مما اقتصصتُ إلا وقد جعلك الله مُقَدَّمًا في العِلْم به. ولَعمْري إن الخَطْبَ فيما أُصِبْتَ به لَعَظيم، غير أن تَعوّضه من الأجْر والمَثُوبة عليه بحُسْن الصَّبر يُهَوِّنان الرَّزِيّة وإن ثَقُلَت، ويُسَهِّلان الخَطْب وإن عَظُم. وهبَ الله لك من عِصْمة الصَّبر ما يُكمل لك به زُلْفى الفائزين، ومزيد الشاكرين، وجَعلك من المُرتَضين قَوْلًا وفِعلًا، الذين أعطاهم الحُسْنَى، ووفَّقهم للصَّبْر والتَّقْوَى.

* * *

قال محمد بن الفَضل عن أبي حازم: مات عُقْبة بن عِيَاض بن غَنْم الفِهْرِيّ، فعزَّى رجلٌ أباه فقال: لا تَجْزع عليه فقد قُتِل شهيدًا؛ فقال: وكيف أجزع على من كان في حَيَاته زينةَ الدُّنيا، وهو اليومَ من الباقيَات الصَّالحات.

* * *

قال ابن الغاز: حَدَّثنا عيسى بن إسماعيل قال: سمعتُ الأصمعيّ يقول: دخلتُ على جعفر بن سُليمان وقد ترك الطعامَ جَزَعًا على أخيه محمد بن سليمان، فأنشدته بيتين، فما برحتُ حتى دعا بالمائدة. فقلتُ للأصمعيّ: ما هما، فسكت: فسألتُه، فقال: أتدري ما قال الأحوص؟ قلت: لا أدري؛ قال؛ قال الأحوص:

قد زادَهُ كلَفًا بالحُبِّ إذ مَنَعت أَحَبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنِعَا

* * *

قال أبو موسى: والأبيات لأَراكة الثقفي يَرْثي بها عمرو بن أَرَاكَة

ويُعزِّي نفسه حيث يقول:

لَعَمْري لئن أَتْبَعْتَ عينك ما مضى ... به الدَّهْرُ أو ساق الحِمَامُ إلى القَبْرِ
لَتَسْتَنْفِدَنْ ماءَ الشؤونِ بأَسْره ... وإنْ كُنْتَ تَمريهنَّ من ثَبَج البَحْرِ[1]
تَبَيَّنْ فإنْ كانَ البُكا ردّ هالِكًا ... على أَحَدٍ فاجْهَد بُكاك على عَمْرو
فلا تَبْكِ مَيْتًا بعد مَيت أجنَّهُ[2] ... عليٌّ وعبَّاسٌ وآلُ أبي بَكْرِ

* * *

قال أبو عمر بن يزيد: لما مات أخو مالك بن دِينار، بكى مالك، وقال: يا أخي، لا تَقَرُّ عيْني بعدك حتى أعْلم أفي الجنَّة أنت أم في النَّار، ولا أعلم ذلك حتى ألحق بك.

* * *

وقالت أعرابية، ورأت ميتًا يُدْفَن: جافى الله عن جَنْبَيْه الثَّرَى وأعانه على طول البِلَى.

* * *

وعَزَّى أعرابيٌّ رجلًا فقال: أوصيك بالرِّضا من الله بقَضائه، والتنجُّز لما وَعد به من ثوابه، فإنَّ الدُّنيا دار زوال، ولا بد من لقاء الله.

* * *

وعَزَّى أيضًا رجلًا فقال: إنّ من كان لك في الآخرة أجرًا، خيرٌ لك ممن كان لك في الدُّنيا سُرورًا.

* * *

(١) مرى الشيء: استخرجه. وثبج كل شيء: معظمه.
(٢) في بعض الأصول: «أحبه».

وجَزِع رجلٌ على ابن له، فشكا ذلك إلى الحسن؛ فقال له: هل كان ابنُك يَغيب عنك؟ قال: نَعم، كان مَغيبُه عنِّي أكثرَ من حضوره؛ قال: فاترُكه غائبًا فإنه لم يَغِب عنك غيبةً الأجرُ لك فيها أعظمُ من هذه الغَيْبة.

وعزّى رجلٌ نصرانيٌّ مسلمًا، فقال له: إنّ مِثْلِي لا يُعزِّي مِثْلك، ولكن انظُر ما زَهِد فيه الجاهلُ فارغب فيه.

* * *

وكان عليُّ بن الحُسَين رضي الله عنه في مجلسه وعنده جماعةٌ، إذ سمع ناعيةً في بَيْته، فَنَهض إلى منزله فَسَكَّنَهم، ثم رجَعَ إلى مجلسه، فقالوا له: أَمِنْ حَدَث كانت الناعية؟ قال: نعم. فعَزَّوه وعَجِبوا من صَبْره فقال: إنا أهلُ بيت نُطيع الله فيما نُحب، ونَحْمَدُه على ما نَكره.

* * *

تعزية

ٱلتمس ما وَعد الله من ثَوَابه بالتَّسليم لقضائِه، والانتهاء إلى أمره، فإن ما فات غير مُسْتَدْرَك.

* * *

وعزَّى موسى المَهْدِي إبراهيمَ بن سَلْم على ٱبن له مات، فَجَزِع عليه جزعًا شديدًا، فقال له: أيسرُّك وهو بليَّة وفِتْنَة، ويَحْزُنك وهو صَلَوات ورحمة؟

* * *

قال سُفيان الثَّوري عن سعيد بن جُبير: ما أُعْطِيَتْ أُمَّة عند المُصِيبة ما أُعْطِيَت هذه الأمة من قولها: **﴿إنّا لله وإنَّا إليه رَاجِعُون﴾**. ولو أُعْطِيها أحدٌ لأُعْطيها يَعْقوب حيثُ يقول: **﴿يا أَسَفَا عَلَى يُوسُف، وٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْن فَهُوَ كَظيم﴾**(١).

---

(١) يوسف: ٨٤.

وعَزَّى رجلٌ رجلاً بآبن له: ذَهب وهو أصلُك، وذَهب آبنك وهو فَرْعك، فما بَقَاء مَن ذهب أصلُه وفرعه؟

* * *

تعازي الملوك

قال العُتْبي: عَزَّى أَكْثَم بنُ صَيْفيّ عمرو بنَ هِنْد ملكَ العرب على أخيه، فقال له: أيها الملك، إنّ أهلَ الدار سَفْرٌ لا يَحُلّون عُقَد الرِّحال إلا في غَيْرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وآرتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأَقام معك مَن سَيَظْعَن عنك ويَدَعك. وآعلم أنّ الدُّنيا ثلاثة أيام: فأمسِ عِظَة وشاهدُ عَدْل، فَجَعَك بِنَفْسه، وأَبْقَى لك عليه حُكْمَك؛ واليوم غَنيمة وصَدِيق، أتاك ولم تَأته، طالت عليك غَيْبَتُه، وستُسْرع عنك رِحْلته؛ وغَد، لا تَدْري من أهلُه، وسيأتيك إنْ وَجَدك. فما أَحسَن الشُّكْر للمُنْعم، والتسليمَ للقادر! وقد مَضت لنا أصولٌ نحن فُروعها، فما بَقَاء الفُروع بعد أُصُولها! وآعلم أنّ أَعظم من المُصيبة سوءُ الخَلف منها، وخَيْرٌ من الخير مُعْطيه، وشرٌّ من الشرّ فاعله.

* * *

لما هَلك أميرُ المؤمنين المَنصور، قَدِمَت وُفود الأنصار على أمير المؤمنين المهديّ، وقَدِمَ فيهم أبو العَيْناء المُحَدِّث، فَتَقَدَّمَ إلى التَّعْزية، فقال: آجَر الله أميرَ المؤمنين على أمير المؤمنين قبلَه، وبارك لأمير المُؤمنين فيما خَلَّفه له، فلا مُصِيبةَ أعظمُ من مُصيبة إمام والد، ولا عُقْبَى أفْضَلُ من خِلافة الله على أوليائه. فأقبل من الله أفضلَ العطيَّة، وآصْبر له على الرزيّة.

* * *

ولما مات معاويةُ بن أبي سفيان، ويزيدُ غائب، صلَّى عليه الضحّاك

ابن قيس الفِهْري، ثم قَدِمَ يزيد من يومه ذلك، فلم يَقْدَم أحدٌ على تَعْزيته حتى دخل عليه عبدُالله بن همّام السَّلوليّ، فقال:

اصْبرْ، يزيدُ، فقد فارقتَ ذا مِقَةٍ   واشكُرْ حِبَاءَ الذي بالمُلْك حاباكَا

لا رُزْءَ أعظمُ في الأَقْوام قد عَلِمُوا   مما رُزِئتَ ولا عُقْبَى كعُقْبَاكا

أصبحتَ رَاعيَ أهلِ الأرض كلِّهمُ   فأنت ترعاهمُ واللهُ يَرْعاكا

وفي مُعاويةَ الباقي لنا خلف   إذا بقيتَ فلا نَسْمَع بِمَنْعاكا

فافتتح الخُطباء الكلام.

* * *

عَزى شَبِيبُ بن شَيْبَة المنصورَ على أخيه أَبي العبّاس، فقال: جَعل الله ثوابَ ما رُزِئت به لك أجرًا، وأَعْقَبك عليه صَبْرًا، وخَتَم لك ذلك بعافية تامّة، ونِعْمة عامّة، فثوابُ الله خير لك منه، وما عند الله خير له منك، وأحقُّ ما صبُر عليه ما ليس إلى تَغْييره سبيل.

* * *

وكتب إبراهيم بن إسحاق إلى بعض الخُلَفاء يُعَزِّيه: إنَّ أَحَقَّ مَن عَرف حقَّ الله فيما أَخَذ منه مَن عَرف نِعْمَته فيما أبقَى عليه. يا أميرَ المؤمنين، إنّ الماضيَ قبلك هو الباقي لك، والباقيَ بعدك هو المأجور فيك، وإنّ النِّعمة على الصابرين فيما ابتلُوا به أعظمُ منها عليهم فيما يُعَافَوْنَ منه.

* * *

دخل عبدُ الملك بن صالح دار الرّشيد، فقال له الحاجبُ: إن أمير المؤمنين قد أُصِيب بابن له ووُلد له آخر. فلما دخل عليه، قال: سَرّك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءَك، ولا ساءَك فيما سرّك، وجَعل هذه بهذه مَثُوبةً على الصبر، وجزاءً على الشكر.

ودخل المأمونُ عَلَى أُمِّ الفَضْل بن سَهل يُعَزِّيها بابنها الفَضْل بن سهل، فقال: يا أُمَّة، إنك لم تَفْقِدِي إلا رؤيته وأنا ولدُك مكانَه؛ فقالت: يا أمير المؤمنين، إنّ رجلاً أفادني ولدًا مثلك لَجَدير أن أَجْزع عليه.

* * *

لما مات عبدُ الملك بن عمر بن عبد العزيز كتب عمر إلى عُمّاله: إنّ عبد الملك كان عبدًا من عَبيد الله، أَحْسَنَ اللهُ إليه وإليّ فيه، أعاشه ما شاء وقَبَضَه حين شاء، وكان - ما علمتُ - من صالِحِي شباب أَهْل بَيْته قراءةً للقرآن، وتَحَرِّيًا للخير، وأعوذ بالله أن تكون لي مَحَبّة أخالف فيها محبة الله، فإن ذلك لا يَحْسُن في إحسانه إليّ، وتتابُع نعَمه عليّ، ولأعلمنّ ما بكت عليه باكية ولا ناحت عليه نائحة، قد نَهينا أهلَه الذين هم أحقُّ بالبكاء عليه.

* * *

دخل زيادُ بن عثمان بن زياد على سُليمان بن عبد الملك وقد تُوفي ابنه أيُّوب، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ عبدَ الرحمن بن أبي بكر كان يقول: من أَحبّ البقاء - ولا بقاء - فَلْيُوَطِّن نفسه على المصائب.

* * *

لما مات مُعاوية دخل عَطاء بن أبي صَيْفِيّ على يزيد، فقال: يا أميرَ المؤمنين، أصبحتَ رُزِئْت خليفةَ الله، وأُعطيت خلافةَ الله، فاحْتَسِب على الله أعظم الرزيّة، واشكُره على أحسن العَطيّة.

* * *

عزّى محمدُ بن الوليد بن عتبة عُمَر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، أعِدّ لما تَرَى عُدَّةً تكن لك جُنّة من الحُزن وسِتْرًا من النار. فقال عمر: هل رأيتَ حُزنًا يُحْتَجّ به، أو غَفْلة يُنَبّه عليها؟

قال: يا أميرَ المؤمنين، لو أن رجلاً ترَك تَعْزية رجل لِعِلْمِه وَٱنتباهه لكُنتَه، ولكن الله قضى أن الذُكرى تنفع المؤمنين.

* * *

وتُوُفِّيَت أُخْتٌ لعمر بن عبد العزيز، فلما فرغ من دَفْنها دَنا إليه رجلٌ فعزَّاه، فلم يَرُدّ عليه شيئًا، ثم دنا إليه آخرُ فعزَّاه، فلم يرُدَّ عليه شيئًا، فلما رأى الناسُ ذلك أمسكوا عنه ومَشَوْا معه. فلما بَلغ البابَ أقبل على الناس بوجهه وقال: أدركتُ الناس وهم لا يُعَزون بامرأة إلا أن تكون أُمًّا، ٱنقلبوا رحمكم الله.

* * *

وُجد في حائط من حيطان تُبَّع مكتوب:

ٱصْبِرْ لِدَهْرٍ نال مِنْـ ـك فهكَذَا مَضَتِ الدُّهور
فَرَحٌ وَحُزْنٌ مرّةً لا الحُزن دام ولا السُّرُور

وهذا نظيرُ قول العتَّابي:

وقائلة لمَّا رَأَتني مُسَهَّدًا كَأَنَّ الحَشَا مِنِّي تُلَذِّعُه الجَمْرُ
أباطِنُ داءٍ أم جَوًى بك قاتِلٌ فقلتُ الذي بي ما يَقوم له صبْرُ
تَفرُّقُ إلآفٍ وموتُ أَحِبّة وفَقْدُ ذَوي الإِفْضَال قالت: كذا الدهرُ

* * *

كتب محمد بن عبدالله بن طاهر إلى المُتوكل يُعزيه بٱبن له:

إنّي أُعزِّيك لا أَنّي عَلَى ثِقَةٍ من الحياة ولكن سُنَّةُ الدِّينِ
ليس المُعزَّى بباقٍ بعد مَيِّته ولا المعزِّي وإن عاشا إلى حِينِ

وقال أبو عُيَينة:

فإنْ أشكُ من لَيْلِي بجُرْجان طُولَه   فقد كنت أشكو منه بالبَصْرَة القِصَرْ
وقائلةٍ ماذا نأى بك عنهمُ   فقلت لها لا عِلْم لي فَسَلي القَدَر

* * *

وقال بعض الحُكماء لسُليمان بن عبد الملك لما أُصِيب بآبنه أيّوب: يا أميرَ المؤمنين، إنّ مثلَك لا يُوعَظ إلا بدون عِلْمه، فإن رأيتَ أن تُقَدِّم ما أخَّرَت العَجَزة من حُسن العَزاء والصَّبر على المُصيبة فترضِي ربَّك وتُرِيح بدنك، فآفعل.

* * *

وكتب الحسنُ إلى عمر بن عبد العزيز يُعزِّيه في آبنه عبد الملك ببيت شعر وهو:

وعُوِّضْتُ أَجْرًا مِن فَقيد فلا يكُن   فَقِيدُك لا يَأتي وأَجْرُك يَذْهَبُ

* * *

ولما حَضرت الإسكندرَ الوفاةُ كَتب إلى أُمّه: أن آصنَعي طعامًا يحضُره الناسُ، ثم تَقدّمي إليهم أن لا يَأكل منه مَحْزون، ففَعلت. فلم يَبْسُط إليه أحدٌ يده، فقالت: ما لكم لا تأكلون؟ فقالوا: إنك تَقدّمت إلينا أن لا يأكلَ منه مَحْزون، وليس منّا إلا من قد أُصيب بِحَميم أو قرِيب؛ فقالت: مات والله آبني وما أَوْصى إليّ بهذا إلا ليُعَزِّيَني به.

* * *

وكان سهل بن هارون يقول في تَعْزِيته: إن التَّهْنِئَة بآجل الثَّوَاب أوجبُ من التَّعزية على عاجل المُصيبة.

* * *

الباب الثامن

متفرّقات

نظرت امرأة إلى جعفر بن يحيى مصلوبًا، فقالت:

- لئن كنتَ في الحياة غاية، فلقد صرتَ في الممات آية!.

* * *

لمّا مات الاسكندر وقف عليه أرسطوطاليس، فقال:

- طالما كان هذا الشخص واعظًا بليغًا، وما وعظ بموعظة في حياته أبلغ من عظته في مماته.

وحُمل إلى أمّه في تابوت من ذهب، فقالت:

- جمعتَ الذهب حيًّا، وجمعك ميتًا.

* * *

سأل أزدشير بعضَ الحكماء عن دار بناها، فقال:

- هل ترى فيها عيبًا؟

فقال الحيكم:

- نعم، عيبًا لا يمكنك إصلاحه.

فقال أزدشير:

- وما هو؟

فقال الحكيم:

لك منها خَرْجة لا عودَ بعدها، أو دخلة لا خروج بعدها.

* * *

قيل لحكيم:

- ما أبعد الأشياء من الناس؟

- قال: الأمل.

فقيل:

- وما أقرب الأشياء منهم؟

- فقال: الأجل.

* * *

عاش نوح، عليه السلام، ما عاش، وقيل له لمّا أشرف على الموت:

- كيفَ وجدتَ الدنيا؟

فقال: وجدتها دارًا دخلتُها من باب، وخرجتُ من آخر.

* * *

قيل: إنّ عبد الملك بن مروان هرب من الطاعون، فركب ليلاً، وأخرج غلامًا معه، وكان ينام على دابّته، فقال للغلام: حدّثني.

فقال الغلام:

- ومن أنا حتّى أُحدّثك؟

فقال عبد الملك:

- على كلّ حال حدّث حديثًا سمعتَه.

فقال الغلام:

- بلغني أنّ ثعلبًا يخدم أسدًا ليحميه ويمنعه ممّن يريده، فكان يحميه، فرأى الثعلب عقابًا، فلجأ إلى الأسد، فأقعده على ظهره، فانقضّ العقاب واختلسه، فصاح الثعلب: يا أبا الحارث، أَغِثْني، واذكرْ عهدك لي. فقال الأسد: إنّما أقدر على منعك من أهل الأرض، وأمّا أهل السماء فلا سبيل لي إليهم.

فقال: عبد الملك: وعَظتَني، وأحسنْتَ، ورضي بالقضاء.

* * *

قيل لفيلسوف:

- مات فلان في غربة.

فقال: ليس بين الموت في الوطن والغربة فضل، لأنّ الموت في جميع المواضع واحد، والطريق إلى الآخرة من كلّ مكان سواء.

* * *

يروى أنّ الإسكندر مرّ بمدينة قد ملكها غيره من الملوك، فقال:

- انظروا، هل بقي بها أحد من نسل ملوكها؟

فقالوا: رجل يسكن المقابر.

فأحضره، وسأله عن إقامته، فقال:

- أردتُ أن أميّز عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدتها سواء.

فقال: هل تتبعني، فأحيي شرفك إن كان لك همّة؟

فقال: همّتي عظيمة إن أنلتنيها.

فقال الإسكندر: وما هي؟

فقال الرجل: حياة لا موت معها، وشباب لا هرم معه، وغنى لا فقر معه، وسرور لا مكروه فيه.

فقال: ليس عندي هذا.

فقال: دعني ألتمسه ممّن هو عنده.

فقال الإسكندر: ما رأيت مثله حكيمًا.

* * *

قال الحسن لشيخ في جنازة:

- أترى هذا الميت لو رجع إلى الدنيا كان يعمل صالحًا.

قال: نعم.

فقال الحسن: إن لم يكن ذاك، فكُنْ أنتَ ذاك.

* * *

قال رجل لأبي الدرداء:

- ما بالنا نكره الموت؟

فقال: لأنّكم خرّبتم آخرتكم، وعمّرتم دنياكم، فكرهتم أن تُنقلوا من العمران إلى الخراب.

* * *

اعتلّ أعرابيّ، فقيل له: لو تبت؟

فقال: لستُ ممّن يُعطي على الذلّ، إنْ عافاني الله تبت وإلّا متّ هكذا.

* * *

اعتلّ الحجّاج، فقيل له: ألا تتوب؟

فقال:

- إن كنتُ مسيئًا فليست هذه ساعة التوبة، وإن كنتُ محسنًا فليست ساعة الفزع.

* * *

لما حضرتِ وكيعًا الوفاة، دعا بنيه، فقال:

- يا بني، إنّ قومًا سيأتونكم قد قرّحوا جباههم، وعرّضوا لحاهم، يدعون أنّ لهم عند أبيكم دينًا فلا تقضوهم، فإنّ أباكم قد حمل من الذنوب ما إن غفرها الله لم تضرّه هذه، وإلّا فهي معها.

* * *

لمّا حضر بشرًا الموتُ، فرحَ، فقيل له:

- تستبشر بالموت؟!

فقال: أتجعلون قدومي على خالق أرجوه كمقامي على مخلوق أخافه؟

* * *

شوهد رجل على قبر وهو يُكثر البكاء، فقيل له: أَعلى قريب أو على صديق؟ فقال:

- على أخصّ منهما، فقد كان لي عدوّ، فخرج إلى الصيد، فرأى ظبيًا، فتبعه، فعثر بالسهم، فخرّ هو والظبي ميّتين، فدُفن، فانتهيت إلى قبره شامتًا به، فإذا عليه مكتوب:

وما نحن إلاّ مثلهم غير أنّنا أقمنا قليلاً بعدهم وترحّلوا

فها أنا واقف أبكي على نفسي.

قال هارون الرشيد لابن السماك: عِظْني.

وكان بيده شربة ماء فقال له: يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. قال: يا أمير المؤمنين لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم. فقال له: لا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة. وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيمًا لم ينفعه الطعام، وإذا كان القلب مغرمًا لم تنفعه الموعظة.

* * *

روي أن داود عليه الصلاة والسلام بينما هو يسيح في الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة من بني آدم ملقى على ظهره، وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه: أنا دوسم الملك تملكت ألف عام، وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش وفضضت ألف بكر من بنات الملوك، ثم صرت إلى ما ترى التراب فراشي، والحجر وسادي، فمن رآني فلا تغره الدنيا كما غرّتني.

* * *

قال وهب بن منبه: خرج عيسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم مع أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك. فقالوا يا نبي الله إنّا جياع. فأوحى الله تعالى إليه أن أئذن لهم في قوتهم. فأذن لهم، فتفرقوا في الزرع يفركون ويأكلون. فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول: زرعي، وأرضي ورثتها من أبي وجدي، فبإذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال: فدعا عيسى ربَه أن يبعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة، فإذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة يقولون: أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، ففرّ الرجل منهم، وكان قد بلغه أمر عيسى، ولكن لا يعرفه. فلمّا عرفه قال: معذرة إليك يا نبي الله، إنّي لم أعرفك، زرعي ومالي حلال لك، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: ويحك، هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها ثم ارتحلوا عنها، وأنت

مرتحل عنها، ولاحقٌ بهم ليس لك أرض ولا مال.

* * *

قال وهب بن منبه: أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن، وكان من الملوك الأجلة مكتوبًا بالقلم المسندي، فترجم بالعربي فاذا هي أبيات جليلة وموعظة عظيمة جميلة وهي هذه الأبيات:

باتوا على قُللِ الأجبالِ تحرُسُهُمْ   غلبُ الرجالِ فلم تنفعْهم القُلَلُ
واستُنْزلوا من أعالي عزٍّ معقلَهُمْ   فأُسْكِنوا حفرةً يا بئسَ ما نزلوا
ناداهُمُ صارخٌ من بعدما دُفنوا   أينَ الأسرَّةُ والتيجانُ والحِلَلُ
أينَ الوجوهُ التي كانت محجَّبَةً   وكان من دونها الأستارُ والكِللُ
فأفْصَحَ القبرُ عنهم حين ساءلَهُمْ   تلك الوجوهُ عليها الدودُ يَقْتَتِلُ
قد طالما أكَلوا دهرًا وما شربوا   فأصبحوا بعد ذاك الأكلِ قد أُكِلوا

* * *

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب في بعض سياحاته، فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعامًا من هذه القرية، وأعطاه ما يشتري به فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلي، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة فقعد ينتظر انصراف عيسى من الصلاة، فأبطأ عليه فأكل رغيفًا، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين. فقال له أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل ما كانا إلا رغيفين، فأكلاهما ثم مرا على وجوههما حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحدًا منها، فجاءه فذكاه وأكلا منه، فقال له عيسى: بالذي أراك هذه الآية من أكل

الرغيف الثالث؟ فقال ما كان إلا اثنين. ثم مرا على وجوههما حتى جاءا قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية، فأنطق الله له لبنة فسألها عيسى، فأخبرته بكل ما يراد وصاحبه يتعجب مما رأى، فقال له عيسى: بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج، فأخذ عيسى عليه الصلاة والسلام بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوزا النهر، فقال الرجل: سبحان الله! فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام وقيل ثلاث أكوام من الرمل، فقال لها كوني ذهبًا بإذن الله فكانت، فلما رآها الرجل قال هذا مال فقال عيسى: نعم واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث. فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف الثالث. فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: هي لك كلها. ثم فارقه عيسى. وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه، فمر به ثلاثة نفر، فقتلوه. فقال اثنان منهما للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام فانطلق، فلما غاب قال أحدهما للآخر إذا جاء قتلناه، واقتسمنا المال بيننا. فقال الآخر: نعم، وأما الذي ذهب ليشتري الطعام، فأنه أضمر لصاحبيه السوء. وقال أجعل لهما في الطعام سمًا فاذا أكلاه ماتا وآخذ المال لنفسي، فوضع السم في الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه، وأكلا الطعام فماتا. فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصروعون حولها. فقال هكذا الدنيا تفعل بأهلها.

* * *

وقال الهيثم بن عدي: وجد غار في جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب، وعند رأسه لوح من الذهب أيضًا مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس خدمت عيص بن اسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر، وعشت بعده دهرًا طويلاً، ورأيت عجبًا كثيرًا، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت، وهو يرى مصارع آبائه

ويقف على قبور أحبابه، ويعلم أنه صائر إليهم، ثم لا يتوب، وقد علمت أن الأجلاف الجفاة يستنزلونني عن سريري، ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان، ويترأس الصبيان. فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلاً ومات ذليلاً.

* * *

قال عمرو بن ميمون: افتتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا بهرام ملك فارس كنت أعتاهم بطشًا، وأقساهم قلبًا، وأطولهم أملاً، وأحرصهم على الدنيا، قد ملكت البلاد، وقتلت الملوك، وهزمت الجيوش، وأذللت الجبابرة، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلي، ولم أستطع أن أفتدي به من الموت إذ نزل بي.

* * *

روي أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينما هو في سياحته إذ مر بجمجمة نخرة فسأل الله في أن تتكلم فأنطقها الله له فقالت: يا نبي الله أنا بلوان بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة ورزقت ألف ولد، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش وفتحت ألف مدينة، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم. فمن سمع قصتي فلا يغتر بالدنيا، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديدًا حتى غشي عليه.

* * *

حكي أن رجلين تنازعا في أرض، فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الأرض فقالت: إني كنت ملكًا من الملوك، ملكت الدنيا ألف سنة، ثم صرت رميمًا ألف سنة، ثم أخذني خزّاف وعملني إناء، فاستعملت ألف سنة، حتى تكسرت وصرت ترابًا، فأخذني وعملني لبنًا وأنا في هذا الجدار كذا وكذا سنة، فَلِمَ تتنازعان في هذه الأرض،

وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها منقلبون.

* * *

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما رجع من صفين ودخل أوائل الكوفة رأى قبرًا. فقال قبر من هذا؟ فقالوا قبر خباب بن الأرت فوقف عليه وقال: رحم الله خبابًا أسلم راغبًا، وهاجر طائعًا، وعاش مجاهدًا، وابتلي في جسمه آخرًا ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ثم مشى فاذا هو بقبور فجاء حتى وقف عليها وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لاحقون. اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل ليوم الحساب، وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى.

* * *

قال النبي ﷺ لعمر بن الخطّاب رضوانُ الله عليه: ما عندكَ من ذِكر الموت يا أبا حَفْص؟ قال: أُمْسِي فما أَرى أنّي أُصْبِح، وأُصْبح فما أَرَى أني أُمْسي؛ قال: الأمرُ أَوْشكُ من ذلك أبا حَفْص، أما إنّه يَخرُج عنِّي نَفَسِي فما أَرَى أنه يعود إليّ.

* * *

قال أبو عمرو بن العلاء: لقد جَلستُ إلى جَرِير وهو يُملي على كاتبه:

* وَدِّعْ أُمَامَةَ حان منك رَحِيلُ *

ثم طلعت جِنَازَةٌ فأَمْسك وقال: شَيَّبَتْنِي هذه الجنائز؛ قلت: فَلِم تَسُبّ الناسَ؟ قال: يَبْدَأونني ثم لا أعفو، وأَعْتدي ولا أَبْتَدِي. ثم أنشد يقول:

تُروِّعنا الجنائزُ مُقْبِلات فَنَلْهُو حين تذْهب مُدْبراتِ
كروعة هجمةٍ لمغار سبعٍ فلمّا غاب عادت راتعات

* * *

فهرس المحتويات